موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

من رسائل الأب صفرونيوس

الثالوث القدوس
توحيد وشركة وحياة

الكتاب الثالث

www.coptology.com

Coptology

من رسائل الأب صفرونيوس

الثالوث القدوس
توحيد وشركة وحياة

الكتاب الثالث

٢٠١٠

www.coptology.org

جدول المحتويات

تعريف بأيقونة الغلاف ٤
شرح أيقونة الغلاف **٥**
الكتاب الثالث مع رسالتين إلى الأب سلوانس، والأب يوساب **١٤**
وحدة جوهر الثالوث هي توحيد المسيحية **١٥**
الأُقنوم والجوهر، إعلانٌ عن التوحيد..... ١٥
الصفة الأُقنومية ووحدة الجوهر ١٧
الشركة الإلهية في الجوهر الواحـــد..... **٢٣**
الشركة بين اثنين لا تكفي..... ٢٤
إعلانات تدبير الخلاص..... **٢٨**
التجسُّد الإلهي إعلانٌ عن الثالوث..... ٢٨
كيف نطق (علَّم) الجسد عن الثالوث؟ ٣٠
كيف أعلن التجسُّدُ الثالوثَ؟..... ٣٢
التجسُّد وشركة الإنسانية في الابن المتجسِّد..... ٣٥
تمايُز المحبة، بشـــارةُ حيـــاةٍ **٣٧**
شركتنا في الله حسب المسيح يسوع ربنا ٤٤
رفض الإيمان بالمسيح يعطِّل الاعتراف بالتوحيد..... ٤٩
القواعد السبعة للتدبير **٥٤**
الثالوث واشتياقات الروح القدس..... **٦٠**
الإيمان بالثالوث، هل هو ضروري للخلاص؟..... **٦٧**

أيقونة الثالوث الأقدس لأندريه روبليف

تعريف بأيقونة الغلاف

أيقونة "ثالوث العهد القديم" التي صورها رسام الأيقونات الروسي العظيم أندريه روبليف في الربع الأول من القرن الخامس عشر لدير الثالوث والقديس سرجيوس في زاجوراسك بالقرب من موسكو. وتصور الأيقونة الملائكة الثلاث الذين زاروا إبراهيم وسارة. وقد عالج روبليف هذا الموضوع التقليدي على نحو أصيل، فلم يرسم إلاَّ الملائكة الثلاث وأضفى عليهم مسحة من الرقة والجمال في تكوين دائري يسوده الانسجام والصفاء الروحي. وفي القرن السادس عشر وُضِعَت الأيقونة بناء على أوامر القيصر الروسي بوريس جودونوف في غلاف (أوكلاد) من الفضة المذهبة والأحجار الكريمة، ولكنه نُزع في بداية القرن العشرين عند ترميم الأيقونة، وهي تُعرض منذ ١٩٢٩ في متحف ترتياكوف بموسكو مجردة من غلافها بحيث تُرى في كامل بهائها الأصلي. ومن الجدير بالذكر أن هذه الأيقونة خلبت لُب الكثيرين حتى قال عنها القس والعالم والفيلسوف الروسي بافل ألكساندروفتش فلورنسكي (١٨٨٢ – ١٩٤٣): "إن أشد البراهين الفلسفية على وجود الله إقناعاً برهانٌ لم يرد له ذكر في أي كتاب، ومن الممكن صياغته في أسلوب منطقي على النحو التالي: إن أيقونة الثالوث التي صنعها روبليف موجودة، إذن فالله موجود"[١].

(١) أنظر في ذلك مجلة رسالة اليونسكو – العدد ٣٢٥، يونيو ١٩٨٨ ص ٣، ١٠.

شرح أيقونة الغلاف[١]

بعد أن أتم تلاميذ روبليف العظيم سنة ١٥١٥ تزيين كاتدرائية سيدة النيـــاح في موسكو بأيقونات رائعة، دخلها المتروبوليت والأساقفة والإكليروس والشعب، فصـــاح جميعهم بصوت واحد: "لقد انفتحت السموات حقاً وظهرت عظائم الله". إنه لشـــعور عميق نقدِّره خصوصاً أمام أيقونة الأيقونات، أيقونة الثالوث الأقدس التي رسمها الراهـــب الموهوب أندريه روبليف سنة ١٤٢٥، وقد رفعها "مجمع المائة فصلاً" بعد انقضاء نحو مائة وخمسين سنة على وفاته، إلى نموذج الأيقونوغرافيا، وكل ما يمثل الثالوث الأقـــدس. وفي سنة ١٩٠٤ رفعت لجنة الإصلاح كل الحلي المعدنية التي تزين الأيقونة. وبعد عملية شاقة دقيقة، ونزع الطبقات اللاحقة المتراكمة عليها، بدت الأيقونة بأبهى جمالها وروعتها، حتى استحوذ الذهول والإعجاب على أعضاء اللجنة أنفسهم. والحق يقال أن لا وجود لمثلـــها من حيث التعبير اللاهوتي المجمل وغنى الرمزية والجمال الفني.

تتميز الأيقونة بثلاثة أمور: تذكرنا أولاً بقصة الكتاب المقدس التي تتحدث عـــن زيارة الزوار الثلاثة لإبراهيم (تك ١٨: ١ – ١٥) يشرحها التعليق الليتورجي: "طوبى لك يا إبراهيم لأنك رأيتهم واستقبلت الإله الواحد المثلث الأقانيم". هذا وإن إلغاء صورة إبـــراهيم وسارة من الأيقونة يحملنا على التعمق أكثر في الموضوع والانتقال إلى الأمر الثاني الذي هو التدبير الإلهي. يؤلف الزوار الثلاثة "المجلس الأبدي" وتتبدل معاني المشهد: فخباء إبـــراهيم يصبح القصر – الهيكل، وسنديانة ممرا شجرة الحياة، والكون، رسمـــاً إجماليـــاً في الطبيعـــة وعلامة طفيفة لوجوده، وتحل كأس القربان محل العجل المقدم للطعام.

---

(١) أُخذ شرح الأيقونة الوارد بالمتن نقلاً – بتصرف – عن كتاب "لاهوت الرؤية" للاهوتي الروسي بول أفدوكيموف، نقله إلى العربية بتصرف الأرشمندريت أنطون هبِّي، ونشرته منشورات القيامة – فاريا – لبنان ١٩٨٩ في سلسلة "من ثمار الروح" (٢) – ص ١١: ٢٧.

أما الملائكة الثلاثة فتبدو أجسامهم طويلة رشيقة ممشوقة وأجنحتهم مرسومة على طريقة مشهد الطبيعة، فتوحي مباشرةً بعدم المادة وخلو الثقل، وتلغي الأبعادية المعكوسة البُعد والعمق، حيث يختفي كل شيء في القصي البعيد. وتقترب صور الأشخاص، ويظهر وجود الله هنا وفي كل مكان. وتشكل رشاقة المجموع – وهي سر من أسرار عبقرية روبليف – رؤية مجنحة.

يتحدث الأشخاص الثلاثة، وقد يكون حديثهم نص يوحنا: "لقد أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد". والحال أن كلمة الله فعل مستمر، ويأخذ صورة ذبيحة الكأس.

أمَّا الأمر الثالث المتعلق بداخلية الله فموحى به؛ لأنه فائق الإدراك وصعب المنال، والله حاضر مع ذلك؛ لأن التدبير الخلاصي صادر عن حياة الله الداخلية.

الله بذاته محبة في جوهره الثلاثي، وما محبته للعالم سوى انعكاس محبته الثالوثية، وما عطاء الذات نقصاً، بل تعبير عن فيض الحب، وهو ممثل بالكأس، والملائكة مجتمعون حول الغذاء الإلهي. وقد كشفت عملية إصلاح الأيقونة الأخيرة عن محتوى الكأس الحقيقي. لقد مثلت الطبقة اللاحقة عنقوداً وغطت الرسم الأول أي الحمل، الذي يربط هذه المائدة السماوية بكلمة الرؤيا: الحمل المضحَّى به قبل إنشاء العالم. وقد سبقت المحبة والذبيحة والتضحية فعل خلق العالم وهي مصدر.

الملائكة الثلاثة في سكون؛ إنه السلام الأسمى للكائن بذاته. على أن هذا السكون "مُسْكِرٌ". إنه انخطافٌ حقيقيٌ (الخروج بحد ذاته). إن التناقض كل التناقض في هذا الانخطاف. لقد قال غريغوريوس النيصي: "إن أكبر تناقض هو أن يكون السكون والحركة شيئاً واحداً".

تبدأ الحركة من رِجل الملاك الأيمن اليسرى، وتستمر في انحناء رأسه، وتمر إلى ملاك الوسط، وتجذب الكون بقوة عزيزة لا تقهر: الصخرة والشجرة، وتنتهي في وضع ملاك اليسار العمودي حيث تدخل في السكون دخولها في نقطة تلاقٍ.

ونلاحظ في هذه الحركة المستديرة التي تسيطر نهايتها على كل ما تبقى كما تسيطر الأبدية على الزمن. إن الخط العمودي للهيكل والعصى يُشير إلى خطوط القوة العمودية، إلى تطلع الأرضي نحو السماوي حيث تجد القوة الدافعة حدَّها.

إن رؤية الله هذه تشع حقيقة العقيدة الفائقة للعقول، فتنجلي الوحدة والمساواة من نظرة روبليف إلى الملائكة. فباستطاعتنا أن نأخذ ملاكاً مكان الآخر. وإن ما يفرق بينهم هو وضع الملاك الشخصي باتجاه الملاكين الآخرين. ومع ذلك، فلا وجود للإعادة والتكرار والإشكال والخلط. ويشير الذهب البرَّاق على الأيقونات دائماً إلى الإلوهة وفيضها، وتحيط أجنحة الملائكة باتساعها كل شيء وتغطيه، ويُظهر محيط Contours الأجنحة الداخلي المرسوم بالأزرق المُضاء الوحدة وصفة الطبيعة الواحدة السماوية؛ إنه إله واحد بثلاثة أقانيم متساوية تماماً. وهذا ما تدل عليه العُصيّ المتماثلة، علامة السلطة الملكية التي يتمتع بها كل ملاك.

وقد عبَّر روبليف بوضوح عن مساواة الملائكة الثلاثة الكاملة، حتى أنه لا توجد قاعدة لتحديد الأقنوم الإلهي الممثَّل بكل ملاك. فلا يشكل ملاك اليمين مشكلة: إنه الروح القدس. أمَّا الخلاف فقائم حول ملاك الوسط، فنتساءل أيُمثِّل الآب أم الابن؟ وفي حال تحديده تُعرف هوية ملاك اليسار.

هنالك شهادة مهمة للقديس اسطفانس البرمي de Perm المعاصر الأكبر لروبليف وصديق القديس سرجيوس الروسي. لقد حمل من بلاد الزيريان Zyrianes — وهي مقاطعة واسعة تمتد حتى جبال الأورال، تدعى "البرمية الكبرى La grande Permie " حيث كان يعمل — حَمَلَ أيقونةً تمثل الثالوث الأقدس على نحو أيقونة روبليف. وقد سُطِّرت حول كل ملاك كتابة باللغة الزيريانية تحمل اسمه. فدعي ملاك اليسار بي Py أي الابن، وملاك اليمين بيولتوس Puiltos أي الروح القدس، وملاك الوسط آي Ai أي الآب.

يتبع بول أفدوكيموف في تعليقه هذا التقليد ويقول: لقد دوَّنت السيدة ن. دومين N. DEMINE في دراستها الممتازة عن فن روبليف (موسكو ١٩٦٣ ص ٥٢ باللغة الروسية): "لقد اجتهد اسطفانس البرمي — سداً لحاجات رسالته — أن يشرح

بمنتهى الوضوح معنى الأيقونة. إن ترتيب الملائكة في أيقونته مماثل لترتيب روبليف. ومدلولهم مماثل أيضاً على الأرجح".

لكل أقنوم علامته الخاصة المميزة المشار إليها بالعصي التي توجه الأنظار إلى هذه الرموز. فتوجد خلف الآب شجرة الحياة، المنهل. يقول القديس اسحق: "إن شجرة الحياة حب الثالوث الأقدس التي سقط منها آدم". وتشير عصا المسيح إلى البيت — جسد المسيح السري. ويبدو الروح القدس على خلفية "الصخور المتدرجة": إنه الجبل، العليِّة، جبل ثابور، الارتفاع، الانخطاف، نسيم الفضاء، والقمم النبوية.

أمَّا الأشكال الهندسية للإنشاء التصويري، فهي: المستطيل والصليب والمثلث والدائرة، وهي التي تنظم بنية الصورة من الداخل، وعلى المرء أن يكتشفها.

لقد كانت الأرض بحسب مفهوم ذلك العصر مثمنة الأضلاع والزوايا. والمستطيل، خطوط الأرض المبهمة، نراه على جزء الطاولة الأسفل. أمَّا جزء الطاولة الأعلى، فهو مستطيل أيضاً ويشير إلى جهات العالم الأربع، وإلى الجهات الأصلية الأربع، ويرمز هذا الرقم (٤) عند آباء الكنيسة إلى الأناجيل الأربعة بكاملها بدون زيادة أو نقصان، وهو علامة شمولية الكلمة. ويمثل جزء "الطاولة — الهيكل" الأعلى، الكتاب المقدس مقدِّماً الكأس، ثمرة الكلمة. وإذا مددنا خط شجرة الحياة — القائمة خلف ملاك الوسط — نراها تنزل وتجتاز الطاولة وتغرس جذورها في مستطيل الأرض. لقد أعلنها الكلمة وغذَّاها من محتوى الكأس. ونجد فيها شرح سرها: لِمَ حملت الشجرة ثمر الحياة الأبدية؟ ولِمَ كانت شجرة الحياة؟ نسمع عشية الميلاد: "لقد ابتعد الملاك المستل السيف الملتهب عن شجرة الحياة"؛ لأن ثمرها عطية الإفخارستيا.

تتجه أيدي الملائكة نحو المستطيل، علامة الأرض ونقطة تطبيق الحب الإلهي. إن العالم — دون الله — كائن مختلف الطبيعة، ولكنه داخل في دائرة "شركة الآب" المقدسة، فيتبع الحركة المستديرة، ويجد نفسه في العلى، في السماوي الممثل بالصخرة، وتنتهي هذه الحركة المستديرة للعالم في القصر — الهيكل، وكأن هذا الهيكل هو امتداد الملاك — المسيح وتجسده، إنه جسده الكوني، والكنيسة عروس الحمل المتحد به "بدون انفصال ولا اختلاط".

يبقى الهيكل في سكون راحة السبت العظيم، نهاية الحركة الثالوثية. لقد انتهت دورة الليتورجية الكونية، وجاءت رؤية أورشليم الجديدة الأخروية. ويرمز جزء الهيكل المذهَّب البارز مثل قوة حامية إلى حماية البتول الوالدية وكهنوت القديسين.

قُطِعَ عود الصليب – بحسب التقليد – من شجرة الحياة. وشكلها يشير إلى محور غير منظور، إنما وجوده واضح في الأيقونة. أمَّا الهالة، وهي الدائرة المنيرة المحيطة برأس الآب، مع الكأس والمستطيل، علامة الأرض كلها، فنجدها على الخط العمودي نفسه، القاسم الأيقونة إلى قسمين. ويتلاقى مع الخط الأفقي الواصل دائرة الملاكين الجانبيين النيرة، ويشكل الصليب. وهكذا الصليب مرسوم في دائرة الحياة الإلهية، وهو المحور الحي لحب الثالوث.

وتجتاز الحركة فرعي الصليب، وهما على منوال ذراعي المسيح الممدودتين لتعانق العالم: "وأنا متى ارتفعت عن الأرض، اجتذبت إليَّ الجميع" (يو ١٢: ٣٢). الابن والروح القدس يدا الآب. وإذا جمعنا أطراف الطاولة إلى نقطة فوق رأس ملاك الوسط تماماً، نتحقق من أن الملائكة يحتلون بدقة مثلثاً متساوي الأضلاع، يدل على وحدة الثالوث ومساواته، قمته الآب، الإلوهة المخصبة. وأخيراً يؤلف الخط التابع المحيط الخارجي للملائكة الثلاثة دائرة كاملة، علامة الأزلية الإلهية. ومركز هذه الدائرة في يد الآب الضابط الكل.

يختلف روبليف عن الإيطاليين. فهؤلاء يرسمون الصورة ضمن الدائرة. أمَّا روبليف فيؤلف الملائكة أنفسهم الدائرة. ويؤلف محيط الأشياء (الكراسي ومراقيها والجبل) المثمن الأضلاع والزوايا رمز اليوم الثامن. ويؤلف محيط ملاكي اليمين واليسار الداخلي الكأس التي هي بمثابة مفتاح لسر الأيقونة. إن توزيع الأجسام Masses والنسب Proportions والمقاييس خاضع لنظام نِسَب Rapports موزون بمنتهى الدقة والكمال. ويبدي روبليف ضمن هذا الإطار حرية كبرى في أساليبه بغية التشديد على المعنى العقائدي عند الحاجة. مثال ذلك: تنحرف الكأس ويد الآب قليلاً نحو الأسفل وإلى يمين الوسط، بينما يميل الرأس قليلاً إلى يسار المحور العمودي. إن هذه الانحرافات غير الملحوظة تقريباً مع طيَّات الثياب المنحدرة من الكتف اليسرى انحدار الشلال،

تجذب الأنظار إلى اليد التي تبارك الكأس مركز الصورة العقائدي، يدعمه ويظهره مجموع الخطوط العمودية والهيكل.

أمَّا أقدام الملائكة فتكاد تلمس مراقي الكراسي، مما يعطي تأثير خفة معدومة من كل ثقل، ويرفع المجموع نحو العلاء وقد أمسى رشيقاً، فنشعر وكأننا في "مراعي القلب" على حد تعبير القديس مكاريوس، وفي فسيح القلب الإلهي غير المحدود.

يبدو الأشخاص بثلاثة أرباع de trios quarts مما يقلل عرض الكتفين، ويمر الخط المرن تبعاً للهيئات المستطيلة ذات الأناقة السماوية. وكذلك الأوجه فإنها محولة قليلاً وحائزة على الشكل المستطيل نفسه. تعبِّر الخطوط المستقيمة عن عنصر القوة، وتتفق مع الخطوط المدورة، فنبهج النظر والقلب بإيقاعها الموسيقي الصِرف، وبنضارة الشباب، وتنشد نعمة القوة الكامنة فيها. ويعبِّر المحيط Contours عن الحركة أكثر مما يعبِّر عن الحجم، وتوحي سعة الملابس الشعور بخفة حِمل الجسد، فيما ينوه غطاء الرأس الواسع بلطافة تقاطيع الأوجه المتسمة بالصفاء القديم.

في وضع الآب شيءٌ من العظمة يبعث على السلام المهيب والسكون، والفعل الصِرف، المتمم، مبدأ الأبدية الثابت، وفي الوقت نفسه – وفي تعارض مدهش – يعبِّر عن المبدأ القوي في تصاعد حركة الذراع اليمنى وانحنائها القوي المتلائم مع القوة نفسها في انحناء العنق والرأس.

إن ما يفوق وصفه في سر الله، جمع السكون وعدم الحركة مع الحركة: مطلق الفلاسفة، وفعل اللاهوتيين الصرف، وإله الكتاب المقدس الحي، "أبانا الذي في السموات".

إن القدرة الإلهية، على نحو ما جاء في قانون إيماننا "أؤمن ... بآب ضابط الكل" هي قدرة محبة الآب المعبَّر عنها في نظرة ملاك الوسط. إنه المحبة، ولأجل هذا لا يستطيع أن يكشف عن نفسه إلاَّ في الشركة، ولا يستطيع أحد أن يتعرف عليه إلاَّ بصفته شركة. "لا يأتي أحد إلى الآب إلاَّ بي" (يو ١٤: ٦). ومن ناحية أخرى: "ما من أحد يقدر أن يأتي إليَّ إن لم يجتذبه الآب" (يو ٦: ٤٤). ليس هذا ضيقُ صدرٍ أو استبداداً إنجيلياً، إنما هو أعظم كشف عن طبيعة المحبة نفسها. لن يحصل المرء على أدنى

معرفة عن الله خارجاً عن الشركة بين الله والإنسان، وهذه الشركة ثالوثية دائماً، وتُظهر الشركة بين الآب والابن، وتجعلنا ندرك السبب الذي لأجله لا يكشف الآب عن نفسه مطلقاً مباشرةً، إنه المنهل، ولهذا هو الصمت بالضبط. يكشف عن نفسه أزلياً من خلال الابن والروح القدس اللذين يكشفان عنه. تعرض الأيقونة هذه الشركة، والكأس مركزها الحي.

تزداد خطوط الجهة اليمنى لملاك الوسط شيئاً فشيئاً كلما اقتربت من الملاك الأيسر. يشير الخط المقوّس المحدَّب دائماً – في رمزية الخطوط – إلى الإيضاح اللفظي، إلى الكلمة، إلى الانتشار، إلى الوحي، على عكس الخط المقوّس المقعَّر، فإنه يشير إلى الطاعة، إلى الانتباه،إلى نكران الذات، إلى القابلية. الآب متجه نحو الابن؛ إنه ينطق. الحركة السارية في كيانه هي الانخطاف. إنه يعبِّر كلياً عما في نفسه في الابن، "الآب فيَّ وكل ما هو للآب هو لي".

الابن يصغي، وخطوط ثيابه المقوّسة المقعّرة تعبِّر عن أعظم انتباه ونكران الذات. وهو يخلي ذاته أيضاً لكي يكون كلمة أبيه: "الكلام الذي أكلمكم به لا أقوله من عندي؛ الآب المقيم فيَّ هو الذي يعمل الأعمال" (يو ١٤: ١٠). يده اليمنى تنقل حركة الآب: البركة، إصبعاه البارزتان على بياض الطاولة – الكتاب المقدس، تعلنان طريق الخلاص – اتحاد الطبيعتين في المسيح ودخول البشري (الإنسان) في شركة الآب.

تدل يد الملاك اليمين النازلة على اتجاه البركة: العالم. وتبدو وكأنها تستر وتحمي، وتشبه جناحي الحمامة النقية المنبسطين فوق المستطيل الممثل العالم.

وتوحي عذوبة ملاك اليمين بشيء من الأمومة والحنان. إنه المعزِّي وهو الروح أيضاً، روح الحياة والمعطي الحياة. فيه بداية كل شيء. إنه عبارة الحب الإلهي الثالثة، روح المحبة. ويختلف وضعه بعض الشيء عن وضع الملاكين الآخرين. ويقوم في وسط الآب والابن بانحنائه واندفاع كل كيانه. إنه روح الشركة، وكل حركة تصدر عنه. بنَفَسِه ينطلق الآب نحو الابن، والابن يتقبل الآب، والكلمة تُعطي صداها. وقد قال القديس يوحنا الدمشقي: "بالروح القدس نعرف المسيح ابن الله، وبالابن نتأمل الآب". لقد انطلق الآب نحو الابن يوم الظهور الإلهي في حركة حمامة.

بحزنٍ يفوق الوصف، وهو حزنٌ بحجم الحب الإلهي، يحني الآب رأسه نحو الابن، ويبدو كأنه يتحدث عن الحَمَل المضحَّى، وتبلغ تضحيته ذروتها في الكأس التي يباركها. ويعبِّر وضع الابن العمودي عن كل انتباهه، وكأن وجهه مظلل بالصليب، إنه غارقٌ في التفكير، يعبِّر عن موافقته بإشارة البركة نفسها. إذا كانت نظرة الآب في عمقها غير المحدود تتأمل في طريق الخلاص الوحيد، فإن رفع نظر الابن، الذي يكاد يكون ملحوظاً، يعبِّر عن قبوله ورضاه. أمَّا الروح القدس فإنه ينحني نحو الآب؛ إنه غارقٌ في التأمل في السر، فتشير ذراعه الممدودة نحو العالم إلى الحركة النازلة، إلى العنصرة، إلى "القوة الكاشفة" وكأنه حالٌ الآن على الابن في رسالته الأرضية. وضعه وضع الخضوع، إنه تحقيق الإنجيل.

للألوان في الأيقونوغرافيا لغتها الخاصة. لقد بلغت عند روبليف غنى لا يُعَادَل: هي اتفاق موسيقي تام يتجلى فيه سلم الألوان بكامله في أدق تنوع فينعكس على تفاصيل الصورة كلها. ومع ذلك لا تأثير لتعدد الألوان، إذ لا شيء يعكّر عمق الاختلاء الإلهي. فلا وجود للظل، وكل جزء غير مضاء إلاَّ بنوره الخاص المتدفق من جذور سرية. أمَّا كثافة ألوان الصورة الوسطى فتزداد بهاءً بتعارضها مع بياض الطاولة التي تزهو بتألق الملائكة المحيطين بها تألقاً لطيفاً ناعماً.

يؤلف الأرجوان الشديد الاحمرار (الحب الإلهي)، والأزرق الكثيف (الحقيقة السماوية)، وذهب الأجنحة البراقة الزاهر (الفيض الإلهي) انسجاماً تاماً Accord parfait يستمر ويتلاقى في لون ملطَّف مثل رؤية منوعة واستنارة تدريجية: الوردي اللطيف والليليكي إلى الشمال، الأزرق الملطَّف والأخضر المفضض إلى اليمين، ذهب الكراسي، القاعدة الإلهية، يحكي عن فيض الحياة الثالوثية؛ ويعبِّر الأزرق المسمى "أزرق روبليف" عن لون سماء الثالوث والفردوس. وعندما يميل الأزرق أكثر فأكثر إلى لونه الفاتح، يصبح كنور الأيقونة نفسها السماوي.

تقبض يد الآب على البداية والنهاية، وهي ممدودة فوق الكأس. ويشمل الزمان في الأبدية الحملُ المضحى قبل إنشاء العالم، وحمل هيكل أورشليم الجديدة، وعشاءُ المسيح السري المقدس، ووعده بأن يشرب عصير الكرمة في ملكوت الآب،

هذه جميعاً تُدخل الزمان في الأبدية. وتشع الكأس بياض الكلمة الساطع، فتعكس الكلمة ألوان الحقيقة كلها، وهذا إشعاع القلب، والعطاء المتبادل عند الأقانيم الثلاثة الإلهية.

ينبعث من الأيقونة نداء شديد: "كونوا واحداً كما أنا والآب واحد". الإنسان مخلوق على صورة الله المثلث الأقانيم. وجميع البشر مدعوون ليلتفوا حول الكأس الواحدة نفسها، ويرتفعوا إلى مستوى القلب الإلهي، ويشتركوا في الوليمة المسيانية، ويصيروا هيكلاً – حملاً واحداً، "الحياة الأبدية (الروح) هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو ١٧: ٣).

وتنتهي الرؤية عند هذه الإشارة الأخروية: هي مقدمة ملكوت السماوات المغمورة كلياً بالنور الذي ليس من هذا العالم، مغمورة بفرح طاهر نقي مجرد، بفرح إلهي. وهذا لسبب بسيط، وهو أن الثالوث الأقدس موجود، وهو يحبنا، وأن كل ما لدينا من نعمة منه. وعند هذه الرؤية يستحوذ الذهول على النفس فتصمت. لا ينطق الصوفيون مطلقاً من قمة وعلو. الصمت وحده يكشف عما يخالج النفس.

الكتاب الثالث

مع رسالتين

إلى الأب سلوانس، والأب يوساب

وحدة جوهر الثالوث
هي توحـــيـــد المـــسيحية

١– عندما نقول إن جوهر الثالوث واحدٌ لا ينقسم ولا يتعدد، فإننا بـــذلك نؤكِّد وحدانية الله. وكلمة "واحد"، أو "الله الواحد" التي نعترف بها في الأمانة (قانون الإيمان) تعني وحدة جوهر الله؛ لأننا نقول: "نؤمن بإله واحد" مؤكِّدين وحدة الجوهر الإلهي. ونحن بذلك نعترف بأن الله ليس له آخر، ولا يوجد "مثله"، ولا يوجـــد لـــه "شبيه"، أي لا يوجد آخر له ذات الجوهر الإلهي، أو جوهر يشبه جوهر الله خالق كل الأشياء.

٢– نحن نؤكِّد التوحيد – بدقةٍ تامة – بقولنا: الجوهر الإلهي الواحد. وبذات الدقة نقول: "الثالوث المساوي"، أي مساواة الأقانيم مساواة تامـــة وكاملـــة. هـــذه المساواة تعني أن جوهر اللاهوت واحد في كل أُقنوم، وهذا نفسه ينفـــي "التعـــدد"، و"الاختلاف"، و"التباين" بين أقانيم الجوهر الواحد؛ لأن المساواة التامة تجعلنا نعتقد أن كل أُقنوم له ذات الطبيعة الإلهية الخاصة والمشتركة التي لا اختلاف فيها.

٣– والمساواة تؤكد شركة أقانيم الثالوث في طبيعة إلهية واحدة، ومســـاواة تامة لشركة تامة بين أقانيم الثالوث.

وعندما نقول: "الشركة"، فإننا نؤكِّد أن كل ما للآب هو للابـــن والـــروح القدس. وكل ما هو للابن هو للآب والروح القدس. وكل ما هو للروح القدس هـــو للآب والابن، شركة كاملة تامة لا انقسام فيها.

الأُقنوم والجوهر، إعلانٌ عن التوحيد

٤– الأُقنوم هو تخصيص وتعيين في جوهر الله. وصعوبة إدراكنا لهذه الحقيقة مصدرها أننا نتكلم عن أمرٍ لا مثيل له في الطبيعة المخلوقة مهما كانت. ولعل أقـــرب

مثال على ذلك، هو أن نطلق اسم بطرس أو يوحنا على إنسانٍ معيِّن، نعرفه بأمرٍ خاصٍ به، فيصبح بطرس هو تخصيصٌ لكائن وشخص ينتمي إلى الطبيعة البشرية. هذا هو أقرب مثال، وهو لا ينطبق على اللاهوت لأسبابٍ معروفةٍ لكل مَن يدرك الفرق بين الخالق والمخلوق.

٥– ونحن لم نتأمَّل الطبيعة الإلهية ونخصص فيها الآب والابن حسب الخيال أو الإدراك البشري، وإنما جاء التخصيص من إعلان الخلاص في إنجيل ربنا يسوع المسيح. فقد ظهر لنا الابن الوحيد كلمة الله مدبِّر وسند الخليقة وصانعها وجابلها من العدم. ولمَّا تجسَّد وصار إنساناً وعاش بيننا، كان يخاطب الآب في الصلاة، ويعمل المعجزات باسم الآب، ويوجِّه أنظار التلاميذ إلى الآب، وبذلك أعلن لنا أُبوة الله الآب له، ودعانا إلى قبول هذه الأُبوة كنعمةٍ خاصةٍ ترفعنا من مستوى العبيد إلى مستوى ورتبة الأبناء.

٦– وعندما أعلن الابنُ أُبوة الله، فقد جاء الإعلان عندما تجسَّد مؤكِّدا أُبوة الآب لنا من خلال إعلان علاقته الخاصة بالآب، وذلك بالقيامة من الأموات: "وتعيَّن ابن الله بقوةٍ من جهة القيامة" (راجع رو ١: ٤). فقد أقام الآب ابنه من الأموات، وبذلك أعلن أن علاقته بالآب هي علاقةُ ابنٍ؛ لأن الآب أقام ابنَهُ الذي هو "مسرته" و "ابن محبته" مُعلناً إلوهيته، التي سبق وأعلنها الابن في ذاته بالأقوال والأفعال معاً، أي المعجزات التي أظهرت سلطانه الإلهي على الحياة بكل صورها وحدودها، وعلى الموت إذ أقام الموتى، وعلى الأمراض التي شفاها، وعلى العالم الروحي العلوي بخدمة الملائكة له، والعالم الروحي السفلي إذ طرد الشياطين، وأعطى ذات السلطان للذين يؤمنون باسمه.

وثبَّتَ الابنُ – بالتعليم وبالمواهب – سُكنى الروح القدس فينا، إذ أعطاه لنا عطيةً أبديةً من عند الآب، فأعلن لنا بذلك أنه – وهو يعلن الآب – يؤكِّد تخصيصاً في الآب نفسه، أي الروح القدس المعزِّي الذي سوف يأتي من عند الآب باسم الابن، لكي يشهد للابن، ويضم إليه كل الذين يرغبون في الالتصاق بالابن رباً ومخلصاً ووسيطاً واحداً بين الله والناس.

٧– هكذا ثبَّتَ الابن بتجسُّده وبإعلان علاقته بالآب، وجوداً خاصاً للآب وله وللروح القدس، فأكَّد بذلك تمايزاً في جوهر الله، وهو تمايز أُعطيَ لنا كإعلانٍ عن حقيقة الذات والحياة الإلهية، أي جوهر الله. ولذلك، ولنفس السبب – أي إعلان الخلاص وتأكيد دعوتنا للشركة والحياة الأبدية في الله – وَهَبَ لنا معرفة سر الحياة الإلهية، أي حياة الثالوث القدوس لكي يكون لنا "شركة مع الآب" ومع ابنه ربنا يسوع المسيح بعطية وهبة الروح القدس.

الصفة الأُقنومية ووحدة الجوهر

٨– وتأكيداً للخلاص، وبإعلانٍ عن حقيقة الذات الإلهية، وإننا نحن الترابيون مدعوون للحياة التي تعلو على كل صور وأشكال الحياة المخلوقة، أي حياة الثالوث، عرفنا الأُبوة والبنوة والتقديس، ليس كصفات مثل الرحمة والقداسة والعدل والصلاح، بل "أقانيم" ثلاثة متمايزة، ليس بصفةٍ مثل باقي الصفات الإلهية، بل بوجودٍ خاص[١] هو الوجود الأُقنومي[٢] الذي به وفيه تتحرك الحياة الإلهية حركة محبة داخلية حرة غير مقيدة، متَّجهة من الوحدة وإلى الوحدة، ومنها إلى خارج – إذا جاز لنا استخدام هذه الكلمة – الجوهر الإلهي، أي إلى الخليقة العلوية (الملائكة) والخليقة المتوسطة (البشر) والخليقة السفلية (الكائنات غير العاقلة)، حركة محبة واحدة تجمع الخليقة في أشكالها الثلاثة لكي تنال الصلاح والخيرات الإلهية.

٩– يختلف الله عن المخلوقات في أنه ليس طبيعةً تنمو، تُضاف إليها الصفات؛ لأننا نحن البشر نُخلق بطبيعةٍ إنسانيةٍ تكتسب صفاتها بالنمو والإدراك، بل ونرفض بعض هذه الصفات؛ لأننا نزيد أو ننقص، كلٌ حسب نموه.

---

(١) الوجود الخاص هو كلمة هيبوستاسيس، راجع: الأسقف يوحنا زيزيولاس، الوجود شركة – دراسة في الشخص والكنيسة – مركز دراسات الآباء، مايو ١٩٨٩م، الفصل الثاني: الأهمية الروحية لكلمة أُقنوم، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) الوجود الأُقنومي هو أيضاً وجود "تعيين" في الذات الإلهية، وهو تعيين مصدره الآب؛ لأن الآب هو جوهر اللاهوت، المرجع السابق ص ١٩: ٢٠.

لكن الله ليس كذلك بالمرة، فهو كاملٌ لا يضاف إليه ولا ينقص شيئاً، بل هو مصدر كمال كل الخليقة. لا يضاف إليه ولا ينقص شيئاً، بل كل الكائنات تأخذ منه الوجود والحياة والحركة، بل لا يبقى شيء في الوجود ليس له مكان أو بقاء حسب تدبير خلق العالم.

١٠– وهكذا نؤكِّد أن الأُبوة في الله ليست صفة تضاف إلى أُقنوم الآب؛ لأننا لا نولَد آباء، بل أبناء ونصبح آباءً بعد ذلك، أمَّا الله مصدر كل أُبوة (أف ٣: ١٤ – ١٥)، فهو أُقنوم الآب، وروحٌ بسيط يعطي ولا يقبل التركيب، ويعود إليه ما يعطيه حاملاً معه الخليقة مؤيداً إياها بالعطية، ممجِّداً إياها حسب التدبير.

فالآب هو أُقنوم الأُبوة، وما نقوله عن الآب نقوله عن الابن وعن الروح القدس؛ لأن الابن هو أُقنوم البنوة، والروح هو أُقنوم الانبثاق، أي التقديس.

١١– وعندما نؤكِّد أن الآب ليس أُقنوماً تضاف إليه صفة الأُبوة، بل هو الأُبوة الإلهية الأزلية، فإن هذا يؤثِّر بشكلٍ خاص على علاقتنا نحن البشر مع الله:

أولاً: لأننا لا نشترك في صفةٍ عامة مبهمة غامضة، بل نشترك في أُقنوم الابن الذي هو مصدر التبني بالآب وبالروح القدس؛ لأننا نأتي من الوجود الغامض، أي من العدم إلى الوجود الحقيقي، أي الوجود حسب صورة الله، أي الوجود السامي، وهو وجود التبني، وهو الوجود الذي نعلو فيه ونسمو نحو طبيعةٍ متأقنمةٍ يختفي فيها التركيب، أي يُفتدى، وهكذا نتحول من طبيعةٍ تكتسب صفاتها بالنمو حسب حدود طبعها المخلوق، إلى وجودٍ متأقنم بالنعمة حيث الطبيعةُ فيه حرةٌ بالنعمة تنمو نحو ذاك الذي هو "حرٌ" ومصدر "الحرية"، الله، نامية نحو الوجود الحقيقي "صورة الله" المتألقة بالمجد في المسيح، وهو الوجود الذي خُلِقَ للشركة في الطبيعة الإلهية التي لا تركيب فيها؛ لأن ذلك الوجود الحقيقي، أي "صورة الله" حيث الصفات المُكتسبَة من خلقنا على صورة الله تفتدى وتثبت في المسيح بنعمة حلول الروح القدس، فتصبح الطبيعة الجديدة فينا ليست طبيعة فقط يخضع لها الأُقنوم، بل طبيعة متأقنمة حرة كائنة حسب المسيح كاملة "بلا عيبٍ ولا دنس"، صورة كاملة لَمن هو كامل، صورة مجيدة في الدهر الآتي نراها الآن في مرحلة الطفولة، وتصل إلى البلوغ في الدهر الآتي.

ثانياً: نحن نرى هذا حسب ترتيب الليتورجية؛ لأننا نبدأ بخلق العالم، ونصل إلى كمال التدبير، وذلك عندما نشترك في سر ميلاد الرب من والدة الإله، وموته المحيي لأجلنا على الصليب، وقيامته من الأموات، ومجيئه الثاني، ثم نقدِّم القربان وذبيحة الخلاص التي تجمع كل تدبير الله الثالوث. لأننا في سر المعمودية نصطبغ بصورة الدهر الآتي كبذرة شجرة تنمو كاملة في الدهر الآتي حسب ترتيب الليتورجية الذي يبدأ بالخلق ويكمل يوم الدينونة، يوم الانعتاق. وفي سر الصبغة نولد ونوهَب نعمة الالتصاق بالمسيح منعطفين نحو ذاك الذي هو "الملء"، أي الذي أعطى للطبيعة الإنسانية أن تتأقنم فيه بالاتحاد، أي الطبيعة التي أخذها من البتول لكي تمتلئ من ملء اللاهوت، أي أن تصبح فيه كاملة بالكمال الذي كان في تدبير الله الأزلي السابق على خلق العالم لكي تصبح بداية الخليقة الجديدة وينبوع حياة جديدة متأقنمة بالاتحاد بأُقنوم الابن، مملؤة من كل صلاح وخير؛ لكي - بالالتصاق بالرب - نصبح "روحاً واحداً" حسب عبارة الرسول (١كور ١٢: ١٣)، ومهما زاد عدد المؤمنين، يأخذ الكل من الملء؛ لأن الخليقة الجديدة لا تُستهلك، بل هي غالبة الموت والفساد في المسيح؛ لأننا "بتوسط" الناسوت، أي ناسوت الرب المتَّحد بلاهوته، ناسوت "الإنسان الواحد" (رو ٥: ١٥) الذي منه الكل، ننال من الرأس الواحد، آدم الجديد، كل ما ناله الناسوت في الرب بسبب اتحاده بأُقنوم الابن الرب يسوع المسيح الابن الوحيد.

هذا يعني أن الطبيعة الجديدة، أي طبيعة المسيح المتأقنمة بالاتحاد تصبح ليس فقط، المثال الذي ننمو منعطفين نحوه بسبب الالتصاق به في المعمودية، بل تصبح الحياة الجديدة فينا التي نأخذها كنعمةٍ ثابتةٍ أبدية.

ولا تصبح الطبيعة الجديدة مجرد طبيعة تُخضِعُ الشخص (الأُقنوم)، بل طبيعة حرة متأقنمة فينا بالنعمة، وهي لا تُضاف إلى الطبيعة القديمة، بل بقوة الصليب تصلب الطبيعة القديمة؛ لكي – بالصليب – تتأقنم، وتأخذ الطبيعة الجديدة من الرب ممجدةً فيه حسب قياس مجده الذي رأيناه في القيامة والصعود.

١٢- وحسب ترتيب سر الشكر، نحن لا نتَّحد اتحاداً جسدياً فقط بالرب، بل اتحاداً روحياً أيضاً؛ لأن الرب تجسَّد وأعلن "إنسانيته" لنا، أي أعلن الإنسان الجديد

الذي فيه "حلَّ كل ملء اللاهوت جسدياً" (كو ٢: ٩). **ولذلك – وحسب الترتيب – نحن نأخذ الجسد والدم؛ لأن بداية الخلاص أُعلنت في الجسد والدم كوسيط الإعلان عن الشركة في اللاهوت، في الحياة الواحدة للرب الواحد، تلك الحياة غير المنقسمة إلى لاهوت وناسوت؛ لأن الرب هو "حياتنا" التي لا تنقسم إلى وجود خاص لنا، ووجود خاص به، فهو الرأس ونحن أعضاء الجسد الواحد الذي لا ينقسم؛ لأن المسيحَ واحدٌ، ومع ذلك يبقى لنا الوجود المميَّز الذي لا يذوب بسبب الاتحاد، ولا ينعدم بسبب القيامة، ولا يختلط بسبب التمايز وخصوصية كل عضو في جسد الرب.**

١٣– وبممارسة هذا السر، وتوزيع جسد الرب كل يوم أحد – على الأقل – نأخذ، ليس "حصةً" أو "جزءاً" من جسد الرب، بل "الميراث" الكامل، المسيح كله، لاهوتاً وناسوتاً، وننمو نحوه به وفيه، ليس كطبيعةٍ تضاف إليها صفات، بل ننمو كأقانيم بشرية تأخذ الطبيعة المتأقنمة غير الخاضعة للفساد والانقسام.

وعندما نشترك في جسد الرب ودمه، نأخذه لكي نتأقنم به؛ لأن صراعنا الروحي هو ألاَّ نصبح طبائع متباينة في الكنيسة، بل "أعضاء"، والعضو له وجود خاص متمايز بما يناله من عطية كعين أو أذن أو يد أو قدم، فيصبح الطبيعة الجديدة التي تتأقنم بالنعمة.

١٤– لقد دمَّر الشرُ حرية الاختيار في الإنسان، وأخضع الأُقنوم إلى طبيعة مستعبدة، وصار فهم حدود الطبيعة المستعبدة للخطية وفساد الموت، هو أحد مصادر المعرفة، بل هو أحد مصادر الوثنية.

أمَّا في المسيح، فإن التقديس هو الذي يجعل الشخص (الأُقنوم) يستوعب الطبيعة، ليس كطبيعة، بل كحياة تُصلَب لكي – بالروح القدس – تُعان وتنال الحياة الجديدة في أُقنوم الابن الوحيد متجهةً – بجحد الذات القديمة، أي الوعي والإدراك للحياة الإنسانية المستعبدة – إلى قبول المسيح الأُقنوم مُعلِن الخلاص للعالم.

١٥– كذلك دمَّر الشرُ وحدة كيان الإنسان. ودخل – مع الشر – الموتُ؛ لأنه بالخطية دخل الموت إلى العالم، فصار الجسد أداة إشباع الرغبات، فصار لنا الظن

والوهم بأن لنا "وجوداً ذاتياً" مستقلاً عن الله؛ لأننا انفصلنا عن كياننا الحقيقي، أي صورة الله بالموت.

ودخول الداءُ الخفيُّ (الموت) في فكر الإنسان وحياته، هو دخولٌ جلب معه ثلاثة أشياء:

أولاً: معرفة خاصة مصدرها، ليس الشركة مع الله وفي الله، بل معرفة ذاتية مقيدة باللذة، يسوقها الموتُ نحو إشباع الرغبات بحثاً عن خلودٍ وبقاءٍ يظن فيه الإنسان أنه الوجود الحقيقي.

ثانياً: الاتكال التام على الجسد واعتباره الوجود الحقيقي، أي الوجود المنظور. هذا جلب معه الفوضى في حقل المعرفة، وجعل المنظور أكثر أهمية، بل هو اليقين.

ثالثاً: ضربَ الموتُ المخيِّلةَ، وجعل الإنسان يظن إن ما يتصوَّره ويعطي له شكلاً منظوراً ويخلق له قواماً مادياً يتلاءم مع إحساس الإنسان بأن الجسد وما يخلقه من معرفة ذاتية، هو الصحيح والحقيقي؛ لأنه ملموس وقابل للتحديد.

وبينما المرئي معروفٌ وظاهرٌ للحواس، صار غيرُ المرئي مجهولاً وبعيداً عن الحواس؛ لأن المعرفة صارت تعتمد على الحواس الخمس أكثر من اعتمادها على الحواس الداخلية. هنا – بشكلٍ خاص – أصبح الحق منظوراً ومحسوساً، بينما الحق الأبدي غير المدرك بالحواس الخمس، صار – بسبب انهيار وحدة كيان الإنسان وسيادة الموت عليه – يستَدِل العقلُ عليه بالمقارنات، ويحسَّه بروحه، وهو الخدمة الإلهية الأولى للروح القدس الذي يقدِّم عطية الحس والإدراك عندما يشرق في قلب الإنسان، معلناً الله من خلال الخليقة المنظورة، داعياً الإنسان لأن يطلب النور الإلهي من خلال الشوق والعطش إلى غير المحدود الذي يزرعه الروح القدس في القلب ويعطيه لكل إنسان يشتاق إلى معرفة الله.

١٦–عندما تجسَّد الرب فتحَ حواس الروح الإنسانية بالتعليم. وصار تجسُّدَه الإعلان المنظور الذي لا يحتاج إلى "معرفةٍ استدلالية"، بل إلى معايشة وشركة تفتح حواس الروح الإنسانية وتعيد للإنسان المعرفة بالأمور الإلهية السابقة على سقوط آدم؛ لأن التجسُّد أدخل غير المنظور – بشكل منظور – في حياة الإنسان الروحية. ولذلك

قيل إن الربَ "جعل الاثنين واحداً"، أي الأمور غير المنظورة التي توصف بـــ "السماء" والأمور المنظورة التي توصف بـــ "الأرض"، وصار الكل فيـــه واحـــداً تحـــت "رأسٍ واحدٍ"، فرَدَّ للإنسان المعرفةَ الصحيحةَ التي تجعله يبدأ بالإيمان بالمنظور، لكي يجد فيـــه – من خلال وحدته بغير المنظور – الطريق السليم الذي يؤدِّي إلى معرفة الله.

بعد تجسُّد الرب، لم تعُد المعرفة الإنسانية – التي تعتمد على الإيمان بالمســـيح إلهاً متجسِّداً – معرفةً قياسيةً تعتمد على الاستدلال والاستنتاج، بل معرفـــة إشـــراقية تعتمد على الإلهام المباشر الذي يعطيه الروح القدس للقلب. والسبب في ذلك هو أننا – بتجسُّد الرب – ننال معونةً من مسحة الروح القدس التي تعلن لنا يسوع ابـــن الله المتجسِّد، وترد بداية المعرفة الإنسانية إلى الإيمان؛ لأننا بالإيمان نعبر هوة الوثنية ببشارة الإنجيل، كما نعبر هوة جهل الإنسان بالله بالإعلان عن تجسُّد الرب الذي قلع من قلب الإنسان كل صور البغضة والكراهية والغضب التي اختزنها الإنسان في قلبـــه عـــن الله متصوراً أنه قاسٍ لا يرحم، وجبار متسلط ومُهلك، وهي صور الشيطان التي غرســـها الشيطان في إدراك الإنسان مصوِّراً له الذات الإلهية بنفس صورته الشيطانية الفاســـدة لكي يدمِّر ما تبقى من الشركة.

لكن الرب فدانا بالضعف والألم معلناً بذلك تواضع محبته، وشـــاركنا في آلام الحياة، بل والموت "ونزل إلى الجحيم بواسطة الصليب"، فصار مـــع المـــوتى دون أن يكون أسيراً، وصار مع الأحياء دون أن خاطئاً معلناً لنا إرادته الإلهية ومحبتـــه الأزليـــة رغم خطايانا، لأننا لم نطلبه، بل هو جاء إلينا وطلبنا، فصار بذلك الراعي الصالح الذي يفتِّش عن الخراف الضالة "ويطلب ما قد هلك".

الشركة الإلهية
في الجوهر الواحـــد[١]

١٧– لا ينبغي أن نهمل كلمة "الشركة في الجوهر الإلهـــي الواحـــد"؛ لأن الكلمة تدل على حقيقة المحبة الإلهية، وعلى المصدر الواحد غير المنقسم للنعمة الإلهية.

١٨– نحن نأخذ نعمة التبني عندما نشترك في بنوة الابن، وهو مـــا يجعلنـــا نشترك في العلاقة الذاتية الأُقنومية بين الابن والآب؛ لأن بنوة الابن ليست صفة تفصل أُقنوم الابن عن أُقنوم الآب، بل هي ذات علاقة الابن بالآب، وهي العلاقة الأزلية التي تخصُّ الثالوث. وعندما نشترك في بنوة الابن، فإننا نستقر في "حضن الآب" (يو ١ :١٨) وعندما نستقر في "حضن الآب"، فإننا نقيم في هذه النعمة حسب بشـــارة الإنجيـــل "النعمة التي أنتم مقيمون فيها" (رو ٥: ٢) أي ثابتون فيها بقوة وعطية الروح القـــدس الذي من عند الآب ينبثق (يو ١٥: ٢٦).

١٩– نحن نحتاج إلى معونة الروح القدس في كل ما يخصُّ علاقتنـــا بـــالابن المتجسِّد حتى لا نعود إلى الوثنية، أي إلى العلاقة الخاصة بين الفرد والصنم (الـــوثن)، وهي العلاقة الثنائية المغلقة التي تعيد الإنسان إلى صورته الساقطة عندما يتصوَّر الله على صورته الإنسانية الفاسدة.

ولذلك السبب نفسه – وحتى لا نتصوَّر الرب كما نتصوَّر البشر، وحـــتى لا تسود العلاقة الثنائية وتصبح هي قاعدة الشركة، وحتى لا يتحول الرب يسوع إلى وثنٍ نتصوَّره على صورة فساد طبعنا – أعطانا الرب يسوع الروح القدس المعزِّي والمُعلِّـــم والمرشد والهادي والمخلِّص والمقدِّس، حتى لا نظن أنه بسبب شركة الرب يســـوع في إنسانيتنا وشركتنا في بنوته الأزلية، وهي شركة نعمة، أننا نأتي إلى هذه الشركة كشيء طبيعي يخصُّنا ويخضع لإرادتنا ويقع تحت سلطاننا، بل هو هبة وعطية لا نسود عليها،

---

(١) عنوان أصلي.

بل تحوِّل كياننا الإنساني وتحوِّل معرفتنا؛ لأن غاية إعلان الثالوث هو أن نشترك في الحياة الإلهية التي هي شركة أزلية، وأن نشترك – كنعمة – نحن "الزمانيون" فيما هو أزلي، لكي نصبح "أبديين" – بالنعمة – في يسوع المسيح.

٢٠– ويُعلَنُ الثالوث لنا، كثالوث، وكوجودٍ حقيقي في الذات الإلهية؛ لكي بالإعلان عن الثالوث تتحرر معرفتنا – بالثالوث كشركة – من العلاقة الثنائية القابعة في قلب الإنسان بسبب السقوط، وبسبب "تخمُّر" الوثنية الدائم في الفكر الإنساني الذي تتسلط عليه الأنانية، والتي تجعل كل فرد يتصوَّر أنه هو وحده الحائز على كل شيء في الله، ويتصوَّر أن الباقين من البشر غارقون في الظلام، بينما هو وحده الحائز على النور الإلهي.

وعندما نُخضِع علاقتنا بالثالوث لأُقنومٍ واحد أو أُقنومين معاً، ونفقد رؤية الثالوث، فإننا نعود إلى الوثنية التي كانت ولا تزال علاقة ثنائية بلا شركة بين الفرد والوثن، مهما كانت أعداد الأوثان؛ لأن كل وثن هو صورة إنسانية لا تزيد مهما تعددت الأوثان؛ لأن الصورة الإنسانية الواحدة هي صورة الإنسان الساقط والفاسد الذي لا يعرف الشركة والمُستعبد للأنانية.

الشركة بين اثنين لا تكفي

٢١– والشركة بين البشر إذا تجمَّدت عند الشركة الثنائية، وأُغلقَت بثنائية المحبة بين المُحب والمحبوب، وصار المُحب والمحبوب كلاهما معاً في شركة ثنائيةٍ تجعل المُحب والمحبوب واحداً، وأنكرت الشركة الثنائية وجود باقي البشر، هددت – هذه الشركة – المحبةَ نفسها؛ لأنها تصبح عندئذٍ ثنائية الفرد الذي يرى ذاته في مرآة، ولا يرى في المرآة إلاَّ نفسه. والمرآة هنا هي إمَّا الذات الإلهية، أو الإنسان الآخر المحبوب التي يتصوُّره الإنسانُ المُحبُ كذاتٍ واحدةٍ بلا شركة لا تعرف المحبةَ – كصفةٍ أو كحياةٍ حقيقيةٍ – إلاَّ عندما يقدِّم لها الإنسان العبادة، فتصبح العبادة هي المناسبة التي يعرف فيها الإنسانُ اللهَ الواحد والمحبة؛ لأن المحبة معدومة من ذات الإنسان ومن ذات الله، ولا تنشأ إلاَّ بعلاقة الإنسان مع الله وهي العلاقة الثنائية المغلقة.

بينما – حسب إعلان الثالوث – سبقت المحبة الإلهية خلق العالم كله، وخلق الإنسان، بل هي سبب خلق العالم والإنسان، وهي سبب الإعلان عن الخلاص، ولذلك فهي سابقة على كل شيء، ومنها كل ما هو كائن؛ لأن "الله محبة" (١يو ٤: ٨، ١٦) كما قال الإنجيلي.

٢٢– لا نستطيع أن نعود إلى العلاقة الثنائية بين الإنسان والوثن إذا آمنَّا بالثالوث؛ لأننا – بالإيمان بالثالوث – ندخل شركة محبة الثلاثة، وهي شركة لا يمكن أن تُغلق فيها العلاقة على اثنين؛ لأنها شركة بنوة تستدعي، ليس فقط إيماننا بالآب، بل استقرارنا وثباتنا فيه. وتستدعي أيضاً عطية الروح القدس؛ لأننا بالروح القدس نأتي إلى الابن، وبالابن نأتي إلى الآب. ومن الآب قَبِلنا الابن "هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا" (مت ١٧: ٥ – مر ٩: ٧ – لو ٩: ٣٥). ومن الابن قبلنا الروح القدس، وعندما نقبل الآب نقبل الابن، وعندما نقبل الابن نقبل الروح القدس، وعندما نقبل الآب نقبل الابن والروح القدس. وهكذا نرى أن وحدة جوهر الثالوث، هي بسبب شركة الحياة الواحدة لأقانيم جوهر اللاهوت.

٢٣– عندما نتكلم عن الشركة، فإننا نتكلم عن علاقة الأقانيم. فالشركة في الثالوث ليست علاقة خارجية، بل هي حركة المحبة للثالوث: محبة الآب والابن والروح القدس. وبسبب تمايز الأقانيم نستطيع أن نقول بحريةٍ – دون وقوع في تعدد الآلهة — إن الآب يحب الابن ويحب الروح القدس.

والمحبة الحقيقية تحفظ التمايز، بل يجب أن نقول بدقةٍ أكثر: إن التمايز هو سبب المحبة، فالمحبة لا تأتي من الخارج؛ لأن خارج جوهر الله لا توجد محبة، وما هو خارج جوهر الله هو العدم. ولأن المحبة هي حياة، والحياةُ حركة، فإن حركة الأقانيم هي حركة داخلية لا تأتي من الخارج، ولا تُفرض على الله؛ لأن كل حركة حياة هي هبة من الله حتى حركة وسجود القوات السماوية.

٢٤– وحسب ما نرى من تدبير الخلاص، جاء الابن إلينا متجسِّداً حسب مسرة الآب، وحسب الإرادة الواحدة للثالوث، وحسب المحبة الواحدة للثالوث. وعندما قال الإنجيلي: "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" (يو ٣: ١٦)، فإنه

كان يبشِّر بمحبةٍ واحدةٍ للثالوث؛ لأن الابن الذي قَبِلَ البذل والذبح على الصليب لم يكن مرغماً ولا تحت سلطان آخر، بل له سلطان المحبة الواحدة وقوتها، وهو سلطان الأقانيم وليس سلطان الطبيعة.

وعندما بذل الآبُ الابنَ، فإن البذل والذبح واحدٌ، فقد بذل الآب ابنه بالروح القدس الذي أتى وحلَّ عليه ومسحه في الأردن معلناً إياه ابناً وحيداً للآب، مقدِّماً إياه إلينا؛ لأننا – بالروح القدس – نقبل المسيح معترفين به حسب عمل الروح القدس في قلوبنا.

ومن تدبير الخلاص ندرك أن المحبة الواحدة تجعل الابن يقبل الذبح لأجلنا؛ لكي يأتي بنا من عصيان آدم إلى **رتبة التبني**، ولذلك السبب عينه تجسَّد **الابن**، ولم يتجسَّد الآب ولم يتجسَّد الروح القدس، بل تجسَّد الابن لكي يثبِّت – بواسطة تجسُّده – البقاء الأبدي حسب نعمة الإيمان لكل الذين يؤمنون به، نعمة التبني لأننا نقوم على صورة الابن وحسب مثاله أبناء بالنعمة ووارثين لكل حقوق التبني.

٢٥– الشركة بين اثنين شركةٌ مغلقةٌ – كما ذكرنا – سواء كان هذان الاثنان هما الفرد الواحد والله الواحد، أو كانا اثنين من البشر.

لكن حسب ما نرى ونلاحظ من الحياة نفسها، أن الشركة الثنائية تحتاج إلى الآخرين، وهنا تصبح – بشكلٍ خاص – علاقة احتياج، لا علاقة محبة، أي علاقة تأخذ ولا تعطي، وإن أعطت، فهي تعطي حسب الاحتياج. ولأن الاحتياج يؤكد الأنانية، طلب الرب مِنّا في الوصية أن نحب الأعداء، وألاَّ نرد من يريد أن يقترض مِنّا (مت ٥: ٤٢)؛ لأن الحاجة تفتقر دائماً إلى العطاء.

ولو تصوَّرنا إن الله هو أُقنومان فقط، لصار الله هو المثال للشركة الثنائية، ولَحَفِظَ ذلك المثال العلاقة المغلقة على اثنين. ولكن، ولأن الله ثالوث، صارت علاقة الثلاثة وشركة الثلاثة، ليست شركة مغلقة، بل شركة محبة ليس فيها احتياج للآخر أو للآخرين، بل انسكابٌ حُرٌّ.

نحن هنا لا نبرر عقيدة وتعليم (ديانة) المسيح؛ لأن الرسول قال إن الله هو الذي يبرر (رو ٣: ٣٠)، فالثالوث يبررنا من الوثنية، ومن المحبة الساقطة التي تقوم على

الاحتياج؛ لأن الثالوث هو إعلانٌ عن شركة حياة مثلثة وواحدة، وهو لذلك ينكر "بر الإنسان" الذي يحب عن احتياج ويقيِّد محبته بالاحتياج.

نحن هنا نحسُّ بالمحبة الثالوثية التي تقدِّم لنا مثال العطاء في دائرة مفتوحة أمام الخليقة.

لقد قال لنا الأب ديونيسيوس: **إن الله خلع أمامنا حجاب جوهره، لا لكي نتفرَّس فيه، بل لكي نتعلم منه المحبة الكاملة التي لا تغلق دائرة الشركة. وأنا أُضيف إن هذا تم بتجسُّد الابن الذي أحب الآب أزلياً، وأحبه بشكلٍ خاص كمتجسِّدٍ، لكي يُدخِلُ الإنسانيةَ في شركة المحبة، ويعطي لنا فيه أن ندخل ذات الشركة، ونتمتع بمحبة الآب الغنية بسبب اتحادنا بالرب يسوع وسُكنى الروح القدس، ولذلك نحن لا نأخذ محبةً ثنائيةً من الابن بالروح القدس، بل محبة ثالوثية من الآب بالابن في الروح القدس.** ومن الروح القدس بالابن نعود إلى الآب أصل كل العطايا وجوهر المحبة الإلهية التي قال عنها الإنجيلي: "الله محبة" (١يو ٤: ٨، ١٦).

ومن تدبير الخلاص نعرف أننا لا نحتاج إلى شرح الثالوث خارج تدبير الخلاص؛ لأن كل شرح لا يقدِّم لنا رسالة الخلاص هو شرحٌ غريبٌ عن الإنجيل؛ لأن الثالوث هو بشارة حياة وخلاص لكل الذين يطلبون الحياة والشركة في محبة الله.

نحن لا نحتاج إلى دفاعٍ عقليٍ عن الثالوث؛ لأننا لا نملك أن نقدِّم أدلةً عقليةً عن الحياة الإلهية، ولكن عندما قبلنا بشارة الإنجيل بالخلاص والحياة والشركة، أدركنا صحة الإيمان من الممارسة، ومن قبول الأسرار الإلهية.

إعلانات تدبير الخلاص[١]

٢٦– هذه هي إعلانات التدبير التي تؤكد لنا وحدة جوهر الثالوث والمحبة الواحدة: التجسُّد الإلهي – المعمودية في الأردن – تجارب الرب في البرية – الصليب – القيامة من الأموات – الصعود – الجلوس عن يمين الآب – انسكاب الروح القدس في يوم العنصرة على الخليقة الجديدة الكنيسة الجامعة.

التجسُّد الإلهي إعلانٌ عن الثالوث

٢٧– قال معلمنا القديس أثناسيوس: "صار الكلمة جسداً، لكي يصير الجسد ناطقاً"[٢]. وقد نطق الجسد المتَّحد بلاهوت الكلمة:

أولاً: بمحبة البشر.

ثانياً: بالخلاص الأبدي.

ثالثاً: بإعلان عن الآب والروح القدس. وهو ما ظهر لنا في تجسُّد الابن ومعموديته في الأردن، وتجلِّي الرب على جبل طابور.

ونحن لا نفصل بين محبة البشر والخلاص والثالوث؛ لأن هذه معاً هي التعليم الواحد الأُرثوذكسي الذي "نفصِّله" حسب قدرتنا، ولكنه يبقى تعليماً واحداً لا يقسِّم الخلاص ومحبة وإعلان الثالوث إلى ثلاثة موضوعات منفصلة؛ لأن التقسيم يؤدِّي دائماً إلى جهلٍ بالوحدة والتناغم بين الأصل، وهو الثالوث، والعطية وهي الخلاص.

٢٨– أعلن التجسُّد محبة البشر؛ لأن التجسُّد لم يكن حادثاً عارضاً ومؤقتاً، بل هو اتحادٌ أبديٌ دائمٌ بين اللاهوت والناسوت.

---

(١) عنوان أصلي.

(٢) العبارة كما وردت عند القديس أثناسيوس هي: "في المسيح سنُحيا جميعاً، ولم يعُد الجسدُ أرضيٌ، بل صار ناطقاً" ضد الأريوسيين ٣: ٣٣ – أي اشترك في قوة حياة اللوغوس، فصار حياً حسب اللوغوس وليس حسب الأرضيات.

٢٩– ثبَّت التجسُّد مكانة الإنسان وحظوته لدى الله؛ لأن اتحاد اللاهوت بالناسوت جعل نائب ورأس الإنسانية الجديدة متحداً بالآب وبالروح القدس، وحاملاً في شخصه (أُقنومه) كل ما يسمى بالطبيعة الإنسانية ما خلا الخطية.

٣٠– غيَّر التجسُّد علاقة الله بالإنسان، إذ صار الوسيط، هو رأس الإنسانية ربنا يسوع المسيح نفسه، وليس الشريعة أو الطقوس، بل الابن المتجسِّد رئيس كهنة الخيرات الآتية، والتي هي عطاياه لنا، والتي هي حياته وشركته في الآب وفي الروح القدس.

٣١– أعاد التجسُّد شرح الأسفار المقدسة على أساسٍ أبدي واضح، وهو يسوع المسيح "حجر الزاوية" ورأس كل ما هو جديد، والذي صارت كل كلمات الأسفار المقدسة علامات ورموز لأُقنومه المتجسِّد.

٣٢– لم يعُد الخلاص ممارسات وطقوساً مثل طقوس وممارسات العهد القديم تجلب رضاء الله على البشر، بل صار الخلاص في الرب يسوع محفوظاً فيه؛ لأنه هو ضمان العهد الجديد الأبدي (عب ٧: ٢٢)، ومحفوظاً بقوة اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد يسوع المسيح، وحسب محبته وليس حسب قداسة وبر الإنسان؛ لأنه حيث كثُرت الخطية ازدادت النعمة بوفرة لا مثيل لها (راجع رو ٥: ٢٠) ويكفي أن نقف عند المذبح المقدس لكي نأخذ جسد الرب ودمه ونحيا به.

٣٣– من حياتنا في الجسد، ومن حياتنا الأرضية عموماً تعلَّمنا ضرورة الوزن – الحجم – الشكل – اللون – الرائحة – اللمس – التذوُّق.

وعندما تقدمنا في الحكمة، ونَمَت معرفتنا تعلَّمنا المنطق – الاستدلال – القياس.

وتفوقت المعرفة العقلية على المعرفة الحسية، بل صارت المعرفة الحسية تخضع لها، وصارت المعرفة الآتية من الحواس الخمس أقل من المعرفة العقلية التي تولد في قلب وعقل الإنسان.

فكيف صار "الجسد ناطقاً"، أي جسد الله الكلمة؟

نطق **أولاً** بالمحبة، إذ قَبِلَ شكل وصورة العبد.

نطق **ثانياً** بالحياة، وهي جوهر كل ما هو كائن. وهي – لذلك – سابقة على المنطق والاستدلال والقياس. وقد نطق بالحياة، ليس فقط لأنه شفى مرضى كثيرين (لو ٤: ٤٠) بعضهم لم يكن له إيمان، و لم يطلب التوبة كشرط للغفران، بل غفر وشفى؛ لأن الحياة تسبق كل قواعد المنطق، ولذلك غفر لصالبيه.

والمحبة تسبق كل شيء، بل لا إيمان بلا محبة. والإيمان الذي يولد في الإنسان بدون محبة الرب يسوع هو إيمانٌ ناقصٌ معرَّضٌ دائماً للضعف؛ لأنه لم يأخذ قوة المحبة، لأن المحبة حياة.

نطق **ثالثاً** بالتجديد؛ لأنه جاء وجدَّد الجسد من الموت إلى الحياة الأبدية بالقيامة من الأموات بعدم فساد.

وهنا يجب أن نقول إن عبارة قانون الإيمان: "نزل من السماء" لا تشير فقط إلى تواضع الرب يسوع المسيح وتنازله، بل أيضاً تؤكِّد نزول كل ما هو سمائي لحياتنا الأرضية مثل عدم الفساد، وهي إحدى صفات السمائيين.

كيف نطق (علَّم) الجسد عن الثالوث؟

٣٤– يا كلمة الله الكائن في الحضن الأبوي كل حين، يا مَن تنازلت إلى عالمنا المائت الذي أخضعه آدم الأول للفساد والموت وجلب ظلمة الدينونة وبه سقطنا في الحفرة، فنزلت أنت إلينا في صورتنا لكي تنقذ الصورة التي خلقتها لمجدك.

يا ابن الله الحي، بدون تجسُّدك كانت معرفتنا بالآب قاصرة على أنه خالقٌ فقط. وقبل تجسُّدك رآك الآباءُ والأنبياءُ، الحكمةَ وملاك الرب[1] ولكن بعد تجسُّدك أدركنا أنك أنت الابن الأزلي، وأن الحكمة الأزلية هي حكمة المحبة، وأن القوة الإلهية هي قوة المحبة، وأن عدلك هو شفاء وتجديد ورد الضال وإحياء الموتى.

---

(١) ملاك الرب ليس هو أحد الملائكة، بل كلمة "ملاك" حسب الأصل العبراني تعني رسول أو نائب، ولذلك يقول القديس أثناسيوس: "إن المتكلم من القوات السمائية يكشف عن هويته عندما يقول: أنا ملاك الرب، ولكن عندما يقول: أنا الرب إلهك، فالكلام هو عن ظهور الابن بشكل سمائي قبل تجسُّده من والدة الإله" (راجع ضد الأريوسيين ٢: ٢٧).

نطقت بحياتك، وحوَّلت حياتك إلى كلمات حية. لم تنطق كما ننطق، بل كنت الحياة ولا زلت ينبوع الحياة، ولذلك قلت: "الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة" (يو ٦: ٦٣).

وعندما أسست العهد الجديد لم تقدِّم لنا ثنائية الكلمة والروح، والكلمة والجسد والدم، بل صارت كلماتك دماً أي حياةً، وصار جسدُك كلمةً أي إعلاناً، وصار روحك عطيةً وحلولاً في قلوبنا الخاطئة، وصارت وليمة الشكر هي (المناسبة) والإعلان عن واحدية الكلمة والجسد والدم؛ لأننا نسمع صوتك الإلهي: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، وبكلمتك نقبل العطية لكي نصير شهادة المحبة والكلمة الصادقة، وقد أدرك الرسول واحدية الكلمة والجسد، فقال: "صادقةٌ هي الكلمة ومستحقةٌ كل قبول"، وسجَّل بعد ذلك الإعلان الأبدي عن الخلاص؛ لأن الكلمة القريبة من اللسان والتي في القلب هي: أن يسوع مات لأجلنا، وصار موته كلمةً، وصار الصليبُ حياةً. والاعتراف بالرب يسوع مصلوباً ليس هو اعتراف بكلمةٍ قيلت، بل بذبيحة قُدِّمت وقرباناً طهَّر النجسين.

٣٥- جاء التجسُّد بثلاث تغييرات جوهرية في لغة الإنسان:

أولاً: لم يعُد الإيمان محفوظاً في عباراتٍ، ولذلك كتب الرُسل الأناجيل الأربعة التي تُقرأ معاً من أجل قبول شهادة الشهود، وهم كُثر.

ثانياً: لم تعُد الكلمة هي معيار الحق وقاعدته، بل صار الحق معلَناً "بروح الحق" الذي ينطق بكلمة الحق وإليه تعود الكلمة وبه تُقبل، أي كلمة الروح القدس.

ثالثاً: لم يُعطَ الإعلان عن محبة الله في أقوال، بل أُعطيَ في تجسُّد ابن الله، وصار الجسد والحياة التي أُعلنت فيه "الذي رأيناه، الذي سمعناه، الذي لمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ لأن الحياة أُظهِرت" (١يو ١: ١ – ٣)، أي الحياة التي كانت عند الآب.

كيف أعلن التجسُّدُ الثالوثَ؟[١]

٣٦– نحن لا نتعلَّم شيئاً من الفضول. والسؤال: بـ"كيف؟" يجب أن يأتي بعد السؤال: بـ"لماذا؟"؛ لأننا كمخلوقين لا نملك – في كياننا القديم الذي من الخليقة الأولى، ولا في كياننا الجديد الذي يخرج من الخليقة الجديدة – أيةَ قدرةٍ أو كلمةٍ أو معرفةٍ تجعلنا قادرين على الإجابة عن "سر الوجود" كله، وهو الله خالقنا ومصوِّرنا حسب إرادته.

ولأننا نعجز عن أن نعرف "كيف؟"، فإن الإعلان أجاب عن "لماذا؟". وفي تعليم الرب نفسه لا نجد الجواب عن "كيف؟"، بل عن "لماذا؟". فقد شرح لنا التدبير في العظة على الجبل وفي الأمثال، وهي أمثلة حلوة وحية للتعليم حسب الحياة التي تلد المعرفة الحية التي من تدبير الابن المتجسِّد؛ لأنه جاء لأجل خلاصنا "هذا الذي لأجل خلاصنا نزل من السماء" حسب كلمات الأمانة (قانون الإيمان).

٣٧– جاء الابن من عند الآب وتجسَّد من والدة الإله القديسة مريم. لم يكن له أبٌ حسب الجسد، ليس لأن الزواجَ شرٌ أو نجاسةٌ حسب تعليم الغنوصيين، بل لأنه أراد أن يردَّ الطبيعة الإنسانيةَ إلى الغاية الأعظم التي خُلِقَت لها، وهي عطية التبني، ولذلك السبب وحده لم يأتِ الرب لكي يحفظ ناموس الولادة الجسدية من الأب والأُم، بل لكي يؤسِّس سر التبني من الآب وبالروح القدس، ويحفظه فيه بثبات وقوة أُقنومه الإلهي، وأمانته التي لا تجعل للتحوُّل مكاناً في مقاصد الله الآب العليا، ولذلك قال الرسول: "عظيمٌ هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد" (١تيمو ٣: ١٦).

٣٨– إذا سألنا عن سبب ولادة الابن من الروح القدس، ومن العذراء القديسة مريم، وجدنا ثلاث حقائق هامة عن الثالوث:

أولاً: تأسيسُ بداية جديدة للجنس البشري الجديد الذي يأخذ بدايته، ليس من العدم والتراب كما حدث في الخليقة الأولى عندما أخذ الرب تراباً من الأرض، وخلق منه آدم وحواء بعد ذلك، بل من الروح القدس والماء، يأخذ بدايةً جديدةً

---

(١) العنوان من وضع الناشر.

تحتوي القديم وترفعه إلى فوق إلى حيث الحياة الكاملة، أي الحياة التي لا يسود عليها الموت والفساد.

لقد حلَّ الروح القدس محل العدم، ومحل آدم الأول عندما تجسَّد الرب؛ لأن خالق الكل عندما يتجسَّد لا يأخذ بداية "أيام جسده" (عب ٥: ٧) من العدم ولا من آدم، بل من الروح القدس الرب المحيي، لكي – من بداية تكوين جنسنا – ندرك أن الخليقة الجديدة أساسها في الثالوث. ومن هذا الأساس نفسه نعلم أن بداية خلقتنا الجديدة هي من الله، وغايتها في الله، ولذلك قال الرسول: "مخلوقين لأعمالٍ صالحةٍ قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها" (أف ٢: ١٠)، أي مسيرتنا مع الثالوث التي تبدأ بالولادة وتنتهي بميراث الملكوت.

ثانياً: عندما صارت بداية الجنس البشري الجديد في المسيح، وصارت بداية الطبيعة الجديدة بتجسُّد الابن من العذراء وبالروح القدس، صارت بداية كل الأشياء الجديدة من الروح القدس الذي أسس الطبيعة الجديدة في المسيح، ولذلك نحن نستدعي الروح القدس في كل خدمة (طقسية) وفي كل صلاة لكي ننال به البقاء في الحياة الجديدة.

ثالثاً: وبالروح القدس نرى شجرة الحياة التي أعاد الرب غرسها في بستان الكنيسة، تلك الشجرة الروحية التي تعطي ثمرة الحياة الأبدية، أي جسد الرب ودمه للحياة والشفاء والغفران والتجديد.

هذه الرؤية الروحية تنبع من روح الحق؛ لأن الشجرة تأخذ قوتها من الروح القدس الذي سبق وأعطى الإعلانات، ورتَّب الصلوات في الكنيسة الجامعة معلناً فيها حقيقة الشركة الأبدية الجديدة في الحياة التي لا تعرف الموت؛ لأن بالخطية معرفة الموت وبالروح القدس معرفة التقديس، ليست المعرفة التي تؤدِّي للتقديس، ولكن التقديس الذي يعطي ثمرة المعرفة الجديدة.

٣٩– لم يعلن التجسُّدُ الثالوثَ بشكلٍ مرئيٍ محسوس، بل أعلن التجسُّدُ الثالوثَ بشكلٍ روحيٍّ يعالج خطية الإنسان، ويؤسِّس شركة الحياة، ويزرع شجرة الحياة التي تسبق شجرة المعرفة في الترتيب (الطقس) الذي يخصُّ الحياةَ الجديدةَ.

لقد جاء ابن الله وأعطانا معرفة الآب؛ لأن الله لم يوصَف باسم الآب في كتب الأنبياء إلاَّ نادراً. وكانت كلمات الأنبياء تعطي إشارةً إلى أن الآب هو خالق. هكذا جاء قول أشعياء: "يا ربُ أنت أبونا. نحن الطين وأنت جابلنا وكلنا عمل يديك" (أش ٦٤: ٨). وقبل ذلك بقليل يقول النبي عن الرب يسوع إن "سنة مفدِّي الرب قد أتت" (أش ٦٣: ٤)؛ لأن الرب قد صنع لنفسه اسماً أبدياً بالخلاص الذي أعلنه عند البحر الأحمر والقوات الفائقة في البرية "هكذا قُدْتَ شعبك لتصنع لنفسك اسمَ مجدٍ" (أش ٦٣: ١٤)، وهكذا ضمَّ النبي اسم الأُبوة إلى اسم المخلِّص حينما أعلن مجيء الرب ليفدي الذين هم في حاجةٍ إلى الخلاص "أنت يا رب أبونا، ولِيُّنا (مخلصنا)، منذ الأبد اسمك" (أش ٦٣: ١٦).

لكن – بالتجسُّد – صار الله مُعلناً آبُ ربنا يسوع المسيح. آبُ الابن الذي عاش بيننا، والذي علَّمنا صلاة البنين "أبانا الذي في السموات"، والذي قال: "أبي الذي هو أبيكم"؛ لأنه آدم الجديد، "وإلهي الذي هو إلهكم"؛ لأننا ذرية آدم الجديد الذي صارت له الإلوهة مُعلَنةً حسب الشركة، وليس فقط حسب سيادة الله كخالق.

٤٠– لم تعُد الأُبوةُ اسماً يُقَال، أو اسماً تؤكِّده أحداث الخلاص، بل اسماً أُقنومياً لشركةٍ جديدةٍ وعهدٍ جديدٍ أبدي، حيث نأخذ ميراثنا الأبدي في الثالوث بواسطة ابن الله الذي "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"، فصارت الشركة التي نعترف بها؛ لأنه أخذ منَّا لكي يعطي الذي له، أخذ منَّا الناسوت وأعطانا حياته، أي إلوهيته التي ملأت الجسد وأعطت لنا نحن الترابيون الحياة الجديدة التي لا تعرف الموت، ولذلك قال الرب عن شركتنا في جسده ودمه إن الذي يشترك "لن يرى الموت" (يو ٨: ٥١)، ولن يموت بل يحيا إلى الأبد (راجع يو ٦: ٥١، ٥٨).

٤١– هكذا أُعلن الثالوث لنا: شركةٌ، وعطيةُ حياةٍ تفتح "الذهن" (لو ٢٤: ٤٥) لفهم أسرار الله.

نبدأ بالنعمة، أي نعمة الاستنارة.

وهنا يصبح كل جدلٍ عن طبيعة الله عبثاً لا يؤدِّي إلى شيء، ولكن التعليم الذي يمهِّد للاستنارة هو التعليم الذي لا يناقِش أفكار الجحود وإنكار الثالوث، بل هو الذي يقدِّم العطية ويشرح الممارسة تاركاً للروح القدس خدمة الاستنارة.

التجسُّد وشركة الإنسانية في الابن المتجسِّد

٤٢– أخذ الرب جسداً مثل أجسادنا، ونفساً إنسانيةً مثل نفوسنا. اتحد بكل طبيعة الإنسان "ما خلا الخطية وحدها" حسب اعتراف الكنيسة الجامعة الرسولية.

وعندما نقول "ما خلا الخطية وحدها"، فإننا نميِّزُ بين الطبيعة الإنسانية التي شوهتها الخطية وجعلت تمايز الأشخاص يمر من خلال السقوط، وبين الطبيعة الإنسانية كما خلقها الله، والتي تحفظ التمايز بين الأشخاص كعلامة تؤكِّد ضرورة الوحدة بين المتمايزين، حيث التمايز ليس بسبب الاختلاف في الطبيعة، بل بسبب تنوع المواهب، وهو تنوُّعٍ لا يمس كيان الإنسان، بل يحدد دوره في الحياة كإنسان.

وتمايزٌ تحدده الخطية، ليس مثل التمايز الذي تحدده المحبة، ولذلك السبب جاء المعلِّم والرب المخلِّص وأعطى لنا علامات التمايز الحقيقي، ونقض بذلك علامات ورسومات (صور) التمايز الكاذب بتجسُّده:

أولاً: تمايز يُعطى من خلال الشركة، عندما يصبح التنوع والاختلاف من أساسات الشركة بسبب المحبة. وهو غير التمايز الذي تزرعه الكراهية والخوف وعدم الثقة والانفصال. إنه ليس تمايز انفصال، بل تمايز شركة، وهو الذي جعل الرب يقبل كل ما في الإنسان ما عدا الخطية؛ لأن الخطية تعطي تمايز الانفصال وتقتل الشركة.

ثانياً: تمايز يولَد من اعتبار الفروق، سببُ محبةٍ وانعطافٍ نحو الشركة، ليس عن احتياج ولا من أجل المودة والألفة؛ لأن الخطية تحدد المحبة كما قال الرب إن العشَّارين والخطاة يحبون بعضهم البعض (راجع مت ٥: ٤٦). والخطية هي احتياجٌ لما هو غريب وخارج عن حدود الطبيعة الإنسانية، أي "التعدِّي".

عندما تجسَّد الربُ حفظ حدود الطبيعة الإنسانية؛ لأنه جاء لكي يشفي لا لكي يُبيد. جاء لكي يجدد ويحيي ويحفظ للإنسان كيانه، ويحوِّل استقلال الإنسان إلى عطشٍ دائمٍ نحو خالقه، ويدعِّم هذا العطش بقوة الروح القدس لكي ينطلق الإنسان نحوه منعطفاً بقوة المحبة التي يزرعها الروح القدس وتنسكب في قلوب المؤمنين الذين عندما تنضج محبتهم يصرخون مع الابن وفيه بقوة انعطاف الروح القدس نحو الآب والابن "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤ - ٥).

تمايُز المحبة،
بشــــارةُ حيــاةٍ

٤٣– جاء الرب بتمايز المحبة، وهو تمايزٌ لا يخضع لناموس أو لشــريعة، بــل حتى عندما يقول الرسول: "إن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعــتقني مــن ناموس الموت" (رو ٨: ٢)، فإنه لا يعني وصايا، بل قوة الحياة التي هي صــليب الــرب يسوع، فهو ناموس أو شريعة الحياة.

وعندما يطلب الرب أن نجحد أنفسنا ويحمل كل منَّا صليبه ونتبع الرب، فقد أكَّد تمايزنا في حمل الصليب، وإن الصليب هو ناموس أو شريعة الحياة.

هذا ليس مثل وصايا موسى، بل هو طريق الحياة الذي لا ينفصل عن الــرب يسوع؛ لأن الرب يقول: "يتبعني"، وأكَّدها "كل يوم". وعندما نتبع الرب ندرك أننا لا نحمل صليبه، بل نحمل صليبنا الذي هو صليب الرب، أي بذل النفس وذبح النية وترك القنية، ولذلك كان فخر الآباء الذين سبقونا هو أنهم "لُبَّاس الصليب".

هكذا يبدأ تمايُز المحبة بحمل الصليب والسير مع الرب كل يوم نحو الجلجثــة والقبر والقيامة، وهو الحبل المثلث الذي لا ينقطع (أمثال ٤: ١٢)[١].

نحن نرفض الحياة الترابية، أي الطبيعة التي تأخذ قوتها وكيانها مــن "أركــان العالم"[٢].

---

(١) "وإن غلب أحد على الواحد يقف مقابله الاثنان والخيط المثلوث لا ينقطع سريعاً" (أم ٤: ١٢).

(٢) "إذاً إن كنتم قد متم مع المسيح عن أركان العالم، فلماذا كأنكم عائشون في العالم تفرض عليكم فرائض" (كولوسي ٢: ٢٠). أركان العالم حسب الأصل القبطي – اليوناني هي: niètoi,ion ǹte pikocmoc وهي المواد الأولية التي تكوِّن الطبائع المخلوقة مثل الماء والنباتات ... إلخ. وعبودية الإنسان لأركان العالم تعني الطبيعة المستعبدة للنظام الكوني.

ففي الصليب أباد الرب الموت، فحرر الإنسانية من الخضوع للداء القديم أي الخوف من الموت. وفي القبر أعطى "النياح" أي الراحة من أتعاب العالم. وفي القيامة أعطى المجد الأبدي وحياة عدم الفساد.

هنا لم تكن الطبيعةُ الإنسانيةُ مرغمةً أو مستعبَدةً أو خاضعةً بدون تمييز، بل كما يقول الرسول: "من أجل السرور الموضوع أمامه مضى إلى الصليب مستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله" (راجع عب ١٢: ٢).

لقد ميَّز الرب بين المجد الحقيقي في شركة الطاعة، وبين المجد المزيَّف في استقلال الإنسان ورفضه للشركة؛ لأن الطاعة التي تولَد في الشركة وفي المحبة ليست مثل طاعة العبيد. وعندما قال الرسول إن الرب "أخذ صورة العبد" (فيلبي ٢: ٧)، فهو لم يكن يعلن لنا أنه أخذ طبيعةً مستعبدةً للخوف والكراهية والرفض والعصيان، أي الطبيعة التي تحيا بدون شركة مع الله؛ لأنه جاء لكي ينقض هذه الطبيعة ويحررها، ولذلك أخذها كما هي وجعلها تنمو في النعمة والقامة عند الله والناس (راجع لو ٢: ٥٢) نمواً حسب المحبة – وعبارة حسب المحبة تعني أصلاً حسب الاتحاد بلاهوته – ليس قسراً أو عنوةً، بل عن محبةٍ حقيقيةٍ نَمت حسب قدرات الطبيعة وحدودها، وحسب الاتحاد وهو الأمر الخاص بالرب والذي يُنقل إلينا حسب النعمة؛ لأن قدراتنا وحدود الطبيعة الإنسانية فينا تبقى بلا تدمير، ولكنها تُعان بالاتحاد باللاهوت بالآب والابن والروح القدس، وترتفع بالنعمة إلى مجد الحياة الجديدة.

هذه هي شركتنا في لاهوت الابن، وهي شركة مؤسَّسة على النعمة والتمايُز التام الذي لا اختلاط فيه ولا امتزاج ولا تغيير.

هذه هي حدود "السر"، أي "سر المسيح والكنيسة"، أي اتحاد الرب بالمؤمنين. وهو سر تماسك وبقاء الكنيسة في العالم؛ لأنه بنيانٌ من الله لا يخضع لما نعرفه عن "أركان العالم". وهو "سرٌ"؛ لأنه ليس شركةً حسب الطبيعة، بل شركة حسب النعمة، وهو لذلك لا يخضع لمقاييس الحياة الحسيِّة، أي ما نعرفه عن حياة العالم وعن أركان العالم.

كان الأب ديونيسيوس معنا عندما كُنَّا نبني الحائط الشرقي للــدير، وكــان شيخاً قد تقدَّم في الأيام ووقف يراقب الإخوة، وقال لهم: إن بناء الحائط مثــل بنــاء الكنيسة؛ لأن كل مِنَّا حجرٌ في بيت الرب، في هيكل الرب، ولكن كما قال الرسول: "حجارةٌ حيةٌ" (١بط ٢: ٥)، و"المونة" التي تسبب تماسك الحجارة هي الروح القــدس؛ لأن الروح هو الذي يجمعنا معاً؛ لأنه يميِّز فينا شكل المسيح الحي الذي هو أساس البناء (أف ٢: ٢٠).

هكذا تصبح شركتنا في المسيح: شركةُ بذلٍ من الصليب، وشــركةُ حيــاةٍ جديدةٍ من القيامة، وشركةُ نياحٍ بقوة غلبة الموت؛ لأن البذل صعبٌ، بل مســتحيل على الطبيعة القديمة التي لا تعطي إلاَّ لكي تأخذ، وعندما تأخذ، فإنها تسود وتملك. أمَّا الطبيعة الجديدة، فهي تعطي وتأخذ لكي تشترك وتشارك، إذ غاب عنها الموت الذي "دَحَرَهُ" الربُ و"أبادهُ"، فصارت غنيةً بالصلاح والجود، أي صلاح الرب وجُودِه.

٤٤– فما هو تمايز المحبة الذي تسلَّمناه حسب الإيمان الحي؟

هو تمايزٌ يحفظ الكيان الإنساني حسب حدود الطبيعة الجديدة. وها هي هذه الحدود الجديدة: يقول الرب يسوع: الذي يحبني أنا أحبه. كما يقول إنه هــو والآب يأتيان لكي يقيما معه "إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصــنع منزلاً" (يو ١٤: ٢٣)، فما هي إقامة الله فينا، وما هي إقامتنا في الله؟

يقيم الثالوث فينا بسبب تجسُّد الابن وانسكاب الروح القدس.

ونحن نقيم في الثالوث بسبب "الصبغة المقدسة"[١] وبسبب مســحة المــيرون الإلهية، وبسبب التناول من "سر الأسرار" جسد الرب ودمه.

تأمَّلوا أيها الإخوة هذه الحقيقة: نحن نولَد في المعمودية ونصطبغ فيها لحيــاةٍ تغلب الأنانية. ونُمسَح بالروح القدس لحياةٍ تحت قيادة واستنارة الروح القدس الــذي يضع فينا "فكر المسيح" (١كور ٢:١٦). وعندما نصل إلى هذه النعمة ننال جسد الــرب ودمه؛ لأننا بالصبغة والاستنارة وقيادة الروح القدس نتعلم كيف نميِّز جسد الرب ودمه

(١) "الصبغة" هي الترجمة العربية الدقيقة لكلمة معمودية، وهي تشرح لنا تغيير الطبيعة الذي لا يختلف عن تغيير اللون عندما نصبغ القماش.

الذي يدخل إلينا وفينا وأبواب الحواس مغلقة، لكي يعطي السلام الأبدي للنفس، كما فعل بعد القيامة مع الرسل القديسين (راجع يو ٢٠: ١٩، ٢٦).

وهنا يجب أن نقف أمام هذه الحقيقة الفائقة: نحن نولَد، وعندما نصطبغ، تصبح كل مقاييس المعرفة هي مقاييس الرب، ونتعلم "هندسة الروح القدس"[١] أي بناء الرب يسوع الذي تعلنه بداية الليتورجية "سلاماً وبنياناً لكنيسة الله".

فكيف تُبنى الكنيسة؟

إنها تُبنى على أساسٍ واحد، وهو يسوع المسيح رب المجد، وتتماسك بقوة واحدة هي قوة الروح القدس. ولا يوجد أيُ فارق بالمرة بين الكلام عن قوة الرب يسوع وقوة الروح القدس وقوة الله الآب؛ لأن للثالوث "قوة واحدة"، لكن – بسبب وحدة جوهر الثالوث وبسبب الشركة – يصبح إدراك التمايز في العمل ليس مناسبةً لفصل وحدة جوهر الثالوث، بل لتأكيد الوحدة بسبب النعمة الواحدة التي توهَب من الأقانيم.

نحن نبني مع الرب لأننا "عاملون مع الرب" (٢كور ٦: ١)، ونحن "فلاحة الرب" (١كور ٣: ٩)، وهذا لا يشرح الأساس، بل يشرح الشركة في القوة الواحدة "السينرجيا" *Synergia* [٢] أي العمل الواحد الذي يجمعنا معاً.

نحن نُبنى بالمحبة وبالبذل وبالشركة؛ لأن الأساس الذي يجمعنا هو أساسٌ واحد، وهو يسوع المسيح مصدر المحبة القائمة من القبر، المحبة التي غلبت كل أشكال الانفصال. ومصدر البذل، أي قوة الصليب. ومصدر الشركة؛ لأنه يحيا في الشركة الأزلية لأقانيم الثالوث قبل تدبير الخلاص المُعلَن في الزمان الحاضر.

لذلك أُكرر أمامكم دائماً أنه لا توجد محبة خارج الثالوث. والتوحيدُ لا يُعلِن المحبة بكل أبعادها، أي الشركة. ولا توجد محبة باذلة بدون الصليب؛ لأن ابن الله الحي

---

(١) حسب الأصل القبطي – اليوناني، الكلمة هي "تقنية" الفنان tektwn وهي كلمة شائعة في كل الكتابات النسكية.

(٢) أي اتحاد الإرادة والقوة مع إرادة الرب. استُخدمت هذه الكلمة بوفرة في الكتابات النسكية، وأصل الكلمة هو"ενεργεια" أي قوة أو طاقة وتستعمل لوصف عمل كلمة الله وعمل الروح القدس، فاعلية الأسرار مثل المعمودية والميرون والإفخارستيا، راجع:.G. Lampe, A Patristic Greek Lexicon, pp 470 – 473

جاء لكي "يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يو ١١: ٥٢)، وهو لذلك يجمع الكل في شركةٍ بالبذل، ويسوق القطيع الواحد كراعٍ صالح محب نحو الآب لكي ينال القطيع – بالابن – محبة الآب والروح القدس؛ لأننا فيه، أي في المسيح قد انسكبت محبة الله بالروح القدس في قلوبنا (رو ٥: ٥) أي بذات الروح الذي مسح يسوع في الأردن وأعلنه "المسيح"، لكي يكون لنا شركةٌ بالمسحة في محبته للآب ومحبته لنا التي أظهرها نحو ضعفنا، إذ قَبِلَ أن يكون واحد منَّا، وبِكراً في كل شيء: في الولادة حسب الروح، وفي المسحة بالروح، والقيامة بالروح القدس الذي أقامه من الأموات، وقبل ذلك في تقديم ذبيحة محبته بالروح القدس (عب ٩: ١٣).

أعود وأُكرر الكلام ولا أتعب من التكرار: لا توجد فضائل أو حسنات أو أعمال صالحة مقبولة لدى الله خارج الشركة في الثالوث؛ لأن الصدق والأمانة والجود والإحسان وكل ما يمكن أن يوصف بأنه صالح لا أساس له في حياتنا، أي لا أساس إلهي له بدون الروح القدس؛ لأن مَن يُظهِر التواضع لكي ينال مديح الناس هو شيطان خفي، ومَن يعطي الفقير لكي ينال مكافأة من الله لا يعرف المحبة، ومَن يُظهِر الجود والصلاح نحو عدوه – وهو أمرٌ نادر الحدوث – من أجل كَسبه، لا بسبب فيض المحبة الإلهية، هو غريبٌ عن الله، وقد تغرَّب عنه بالأعمال الصالحة.

ومَن هو أمينٌ في القول والفعل لأنه يريد أن يتجنب شرور الكذب، هو محبٌ لذاته، وقد أفرط في محبة ذاته.

هذه الأمور لا يجب أن تخفَ عليكم؛ لأن التقوى بدون الإيمان لا أساس لها في الله، بل أساسها في الذات، وهي من الذات وتعود إلى الذات.

٤٥– ها أنا أُعيد عليكم ما سبق وقلناه من قبل في اجتماع عيد تجسُّد ابن الله (عيد الميلاد)، وقد قرأ علينا الأب ديونيسيوس رسالة الأب زكريا ومعها فصول كاملة من كتاب تجسُّد الكلمة للعظيم في القديسين معلمنا أثناسيوس الرسولي، وفصول من كتاب الروح القدس لأبينا المُعلِّم بنيامين. ومن هذه الكتب تعلَّمنا أن الفضائل هي ثمرة الاتحاد بالله في الابن وبواسطة الروح القدس.

لا يستطيع مخلوقٌ – مهما كان – أن يخلق كيانه، ويحوِّل ذاته من الفساد إلى عدم الفساد، ومن الموت إلى الحياة؛ لأن ذلك يعني أن الإنسانَ خالقٌ؛ لأنه يملك حياةً غير حياته، وهذا غير صحيح ويكذِّبه التاريخ والواقع نفسه؛ لأن التاريخ مملوء بالعبادات الوثنية، وبعاداتٍ شريرةٍ وسيئة لا مجال لها هنا حتى لا يتدنس الفكر.

٤٦– نحن نرى الموتَ والحياةَ في صراعٍ. وعندما نقول إن الرذائل هي طريق الموت، فذلك لأن كل الرذائل تعمل معاً على الإبقاء على الذات بعيداً عن الله، وتحصرُ نشاطَ الإرادةِ والفكر في إرضاء الأهواء.

هذه هي صورة آدم الأول، صورة العزلة والاستقلال بالذات، ورفض شركة المحبة، وقبول صور المحبة التي تقوِّي الشهوات وإرضاء الذات، أي محبة الخطاة لكل من يشترك معهم في خطاياهم حتى تبرز الكبرياء وتحطِّم هذه الشركة.

٤٧– ولكن صورة الإنسان الحقيقية هي تلك التي جاء بها الرب يسوع المسيح، آدم الجديد أو الأخير. هذه هي الصورة الكاملة للاتحاد بين اللاهوت والناسوت.

وحسب التسليم الكامل والصحيح، الرب يسوع مساوٍ لنا حسب الناسوت، ومساوٍ للآب والروح حسب اللاهوت. هذا يحصر شركتنا في الطبيعة الإلهية في التدبير، أي في مجال الخلاص؛ لأن الطبائع المتَّحدة والتي لها جوهر واحد، تشترك في كل صفات الجوهر، وهو ما يجعلنا – حسب التدبير – مساوين للابن المتجسد، أي بشريته التي أخذها منَّا بواسطة والدة الإله.

هنا يكمن سر التدبير؛ لأن هذه البشرية الجديدة ليست من العدم، ولا هي قائمة بذاتها، وليس لها وجود ذاتي مستقل عن الله، بل هي بشرية الابن الوحيد المتَّحدة بلاهوته، والتي بسبب الاتحاد تأقنمت وصارت واحداً مع اللاهوت، وصارت بذلك آدم الجديد أو الثاني "الرب من السماء" حسب كلمات التقوى لمعلمنا بولس الرسول. لكن "الرب من السماء" أسس السمائيين الذين لا تذوب طبيعتهم الإنسانية؛ لأن ذوبان الناسوت في اللاهوت هو تجديف أوطاخي، وهو ضد تجسُّد الابن الوحيد.

٤٨– فما هي حدود شركتنا في الابن المتجسِّد، والذي هو الآن ممجد، والذي سيأتي لكي يغيِّر جسد تواضعنا لكي يكون على صورة جسد مجده (فيليبي ٣: ٢١)؟

هذه الحدود نراها في تجسُّد الابن نفسه. فقد حرر الناسوت من الموت، وحفظه من الفساد، وأقامه في مجد، وأدخله إلى مقادس السماء. هذه هي حدود ظاهرة بوضوح، فما حدث لناسوت الرب سوف يحدث لنا: قيامة بلا فساد؛ لأنه انتصر على الموت، حياة أبدية لا نأخذها من عناصر مخلوقة؛ لأن الماء والهواء وغيرها من المخلوقات يقول عنها الرسول بطرس "سوف تحترق" (٢بط ٣: ١٠).

وانحلال العناصر – حسب التدبير – لكي يظهر مجد الإنسان في يسوع المسيح؛ لأننا لن نحيا بقدرات الطبائع المخلوقة التي تعطي حياةً للجسد الترابي من طعام وشراب ... إلخ بل سوف نحيا حسب حياة مجد الرب يسوع المسيح الذي هو الآن في السماء لا يأكل ولا يشرب، بل ممجد بمجد إلوهيته الذي سوف يكون لنا عندما نقوم في اليوم الأخير.

٤٩– يقاوم الموحِّدون الشركة في الطبيعة الإلهية؛ لأن الله الواحد عندهم بلا شركة. فهو واحد لا يعرف الشركة في كيانه، إذ هو مثلنا تماماً، فردٌ أي في شكل وصورة الإنسان الذي بلا محبة، وتسوده الكبرياء، فيترل إلى ما هو أدنى منه مثل البشر الذين يحبُّون الحيوانات، وأحياناً يعاملون البشر مثلهم في كبرياء تقتل كل مستويات الشركة. ولذلك لا يجب أن نقع في بئر هذه الوثنية غير المعلَنة، عندما يصبح الله مثلنا تماماً.

٥٠– ومع أننا نشترك جميعاً في طبيعة واحدة هي الطبيعة الإنسانية التي تجمع الكل، إلاَّ أننا مع ذلك نجد أن الميول والسلوك والفضائل والرذائل والمحبة والكراهية، كل هذه معاً، مع سائر ما يكتسبه الإنسان من معرفة، لا تحقق الشركة رغم وحدة الطبيعة.

ومع أن السقوط جعل الطبيعة تسود على الشخص، وجعل حدود الطبيعة عبودية قاهرة لا يعرف الشخص أن يتخطاها، إلاَّ أن الخطية تجعلنا "نتعدَّى" حدود طبعنا، وتجعل الشخص الساقط يُطوِّر قانون العبودية من أجل خدمة شهواته، وعندما

يريد أن يتحرر منها يجد أن طريق الحرية شاقٌ وصعب، ويحتاج إلى عرق جثسيماني ودم الجلجثة.

هكذا، شركتنا في الطبيعة الإنسانية محصورةٌ بين الخطية والنعمة، السقوط والقداسة، العداوة والمحبة، وبين كل ما خلقه كل واحدٍ منَّا لنفسه من عادات وأفكار وتصوُّرات ومشاعر. فالشركة ليست مثل سريان الماء في قناة، تتم رغماً عن الإرادة، أو تتخطى حدود الطبيعة، أو تقهر الإنسان.

أنظروا إلى ما حدث من انقسامات ومصالحات عندنا، كيف عجزت الطبيعة الواحدة الإنسانية عن أن تجعلنا نعيش في وئام ومحبة؛ لأن هذا لا يتم حسب قوانين الطبيعة، بل حسب نمو الشخص وسيادته على الطبيعة.

فما هي شركتنا في الله حسب المسيح يسوع ربنا؟

شركتنا في الله حسب المسيح يسوع ربنا

٥١- إذا قبلنا التعليم الأرثوذكسي بأن الطبيعة المخلوقة لا تملك كيانها، وأن حرية الاختيار فيها خاضعة للطبيعة في حالة آدم بعد السقوط، ونابعة من تجلِّي الشخص في يسوع المسيح، أدركنا أنه توجد حدودٌ ثلاثة لا يمكن أن تتلاشى:

أولاً: إن ما هو مخلوق لا يتحول إلى خالق مهما كان مجد النعمة.

ثانياً: إن ما هو مخلوق ليس له حياة في ذاته، بل الحياة، وقبل ذلك الوجود والحركة هما من الله. ولذلك، عندما يميِّز الآباء بين الوجود والحياة، فهم يريدون منَّا أن ندرك أن الوجود بلا حياة هو جائز؛ لأن الهالكين إذ تركوا الله احتفظوا بنعمة الوجود وفقدوا نعمة الحياة الأبدية. ولأننا جميعاً ليس لنا مصدر ذاتي للوجود والحياة، ومصدر حياتنا هو الله، أصبح من الصعب علينا - مهما كانت كرامة ومجد الشركة في الثالوث - أن يكون لنا حياة ذاتية نابعة منَّا.

ثالثاً: لقد أخذ الابن - له المجد - الطبيعة الإنسانية التي هي ليست طبيعته، أخذ ما ليس له، وهو الناسوت، وهو ما يخصَّنا حسب قول الرسول: إذ اشترك الأولاد

في اللحم والدم اشترك هو فيهما أيضاً[1]، وهكذا باللحم والدم أباد سلطان الموت، وحرر الذين لهم اللحم والدم من العبودية للشيطان.

ولَمَّا قَبِلَ الابنُ الطبيعةَ الإنسانيةَ التي ليست له، حفِظَ هذه الطبيعة: النفس، والإرادة، والجسد، والعقل وقوته، والذاكرة، وكل ما له.

٥٢– يجب أن نعود إلى المسيح نفسه، فهو "ملء القامة" (أف ٤: ١٣) وفيه حلَّ كل ملء اللاهوت جسدياً (كولوسي ٢: ٩)، والرب يسوع المسيح واحد من اثنين، وهو ليس خالق وخالق، ولا هو خالق ومخلوق رغم أن الوصف طبيعي وصحيح؛ لأن اللاهوت خالق والناسوت مخلوق.

لكن اثنينية الخالق والمخلوق لم يقبلها الآباء، بل علَّموا بأرثوذكسية صريحة وواضحة:

لاهوت مساوٍ للآب

ناسوت مساوٍ لنا حسب التدبير (راجع ثيؤطوكية الأحد).

ولم ينزع التجسُّد صفات الناسوت، أو يحول الناسوت إلى لاهوت، أو اللاهوت إلى ناسوت، ولكن ما يجب أن ننتبه إليه هو أن تعبير الرب الواحد من اثنين هو دعوة إلى فحص سر الوحدة، وليس إلى الوقوف عند الفوارق الكبرى بين الخالق والمخلوق؛ لأنه حيث لا يوجد انفصال ولا تحوُّل ولا امتزاج، بات من الحتمي أن نفهم أن الخالق والمخلوق في الرب الواحد قد اتحدا، وتمجد الناسوت بكل غنى اللاهوت دون أن يفقد خواصه أو طبيعته؛ لأن اللاهوت يعطي دون أن يفقد، بل بالعطاء تزيد الشركة. أمَّا الناسوت فهو إن أعطى نَقُصَ؛ لأنه مخلوق من العدم، والعطاء قد يجلب عليه الموت؛ لأن من يعطي حياته، يقدمها "قرباناً"، وهو تقديم محبة.

---

(١)"فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس" (عب ٢: ١٤).

٥٣– لكن الرب الواحد لم يعبر فقط حاجز الموت، بل أباده على الصليب، وحرر الطبيعة الإنسانيةَ فيه من سلطان الفساد والموت، وبذلك صار اتحاد اللاهوت بالناسوت كاملاً بالموت والقيامة، ليس لأنه كان ناقصاً، بل كان كاملاً وأُعلن كماله بعبور مانع الموت الذي جاءت به الخطية.

ولَّما عبَرَ الربُ هذا المانع وقام من القبر في اليوم الثالث، جعل الاتحاد هو المثال الكامل والقياس الذي لا يخطئ للشركة في الطبيعة الإلهية؛ **لأن هذه هي شركة حياة وليس اتحاداً أعمى للطبائع مثل اتحاد المعادن الذي يفقد فيه كل عنصر أحد خصائصه لكي يكوِّن "السبيكة"، بل هو اتحاد أقانيم (أشخاص) نأتي إليه بملء حريتنا**، وعلى هذا الأساس نضع المبادئ العشرة الخاصة بالشركة حسب تسليم الإيمان الأرثوذكسي:

[١] اتحادُ حياةٍ، ولذلك هو اتحاد محبة، واتحاد المحبة هو اتحادٌ حرٌ لا يفرض فيه نوع معيَّن أو صورة من الاتحاد، بل تنمو الطبيعة الإنسانية متجهةً بعطاء الرب ونعمته نحو "ملء قامة المسيح".

[٢] الاتحاد الحر يعني أن يحفظ كل أُقنوم خصائص طبيعته، ولا يُفني اللاهوت الناسوت، بل يحفظ اللاهوت الناسوت.

[٣] صورة الاتحاد الكاملة هي الرب نفسه، وما ليس في الرب ولا منه هو غير مقبول؛ لأنه ظَلَّ الإله المتجسِّد بعد قيامته وصعوده، وسيأتي إلينا في اليوم الأخير متجسِّداً على سحاب السماء.

[٤] عندما مُسِحَ الرب في الأردن بعد خروجه من الماء، أعلن الآب بنوته لنا، ليس لأن البنوة لم تكن موجودة وأُعطيت بالروح القدس كما يدَّعي الهراطقة، بل كان الابن منذ الأزل، ولكنه الآن بعد خروجه من الماء يُعلَن وهو في الجسد "الابن الحبيب" الذي جاء بالتبني.

ولذلك، الاتحاد بالابن الوحيد الرب يسوع المسيح، وبلوغ الشركة هو بالروح القدس بالمسحة التي قال عنها الرسول إن الله الآب سوف يثبتنا بالمسحة[١] ولذلك لا تقاس الشركة بما نأخذه من التجسُّد والصليب والقيامة فقط، بل بمسحة الروح القدس. ولذلك، فالشركة هي شركة بلا حدود مرسومة جسدانية، بل هي شركة نعمة وافرة.

[٥] كان الميلاد الأزلي قبل كل الدهور هو أساس تجسُّد رب المجد، ولذلك بعد ثلاثين عاماً من تجسده أُعلنت بنوته لنا، هكذا بعد كمال الحياة المسيحية هنا على الأرض، تُعلَن بنوتنا في السماء في اليوم الأخير عندما يُفتدى الجسد فداءً كاملاً في يوم الدينونة بالقيامة، عند ذلك نعرف حقاً كمال شركتنا في المسيح.

[٦] أعلن الصليب حقيقة الشركة؛ **لأننا عندما نقول إن الرب حمل خطايانا في جسده على الخشبة، فإننا نقول صراحةً إن الشركة في الطبيعة الإلهية هي شركة خطاة في قداسة الله**، ولذلك السبب نعلم علم اليقين أننا نحن الذين صُلبنا معه نموت معه ونُصلب معه كل يوم؛ لكي يختم الصليب فداء حياتنا ولكي يبيد منَّا قوة الموت والفساد؛ لأنها ليست فقط تُباد من الطبيعة، بل وتُباد من الفكر والإرادة والقلب وحتى اللغة تتحرر من قوة الموت والخطية لكي تسبِّح الرب بلسان الفداء، أي التسبيح الحر غير المقيَّد بالخوف من الدينونة، إذ لا شيء من الدينونة الآن على الذين في المسيح يسوع، والرسول يقصد كل جوانب الدينونة.

[٧] ونحن نحمل ختم القيامة غير منظور فينا بسبب بقاء الناسوت في العالم (الكون) الذي استُعبِد للفساد (رو ٨: ٢٠) ولكن ذلك الختم هو قوة حياة الرب فينا التي تدفعنا نحو حياة عدم الموت وإلى رفض كل ما يعطِّل اتحادنا به.

وختم القيامة – أي قوة الرب التي طُبِعَت فينا – هو الذي يجعلنا نفضِّل الموت على ترك وصايا الرب، ويجعل التصاقنا بالرب أبدياً؛ لأنه ينال قوة حياة الرب يسوع ومسحة الروح القدس ومسرة وعطاء الله الآب.

---

(١) "ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله" (٢كور ١: ٢١).

[٨] عندما يقول الرسول بولس: لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز[١] فإنه يعلن بذلك دوام الشركة في جسد الرب ودمه، ودوام انسكاب حياته فينا، ليس لأن هذه الحياة تُعطى كقطرات المطر، بل هي محبة طوفانية[٢] بلا حدود، ولكن الاقتراب منها لنا نحن الضعفاء هو الذي يجعل هذا الاقتراب ضرورياً من آن لآخر؛ لأننا نحن نتغذَّى بجسد الرب ودمه، ليس بسبب ضعف محبة الرب أو عجز قوته، بل بسبب ضعفنا نحن واغترابنا عن النعمة بسبب الحياة الجسدانية التي تقطع الاتصال بالثالوث ولا تقطع الشركة.

[٩] الشركة ثابتة – كما ذكرنا قبلاً – في اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد يسوع المسيح آدم الثاني رأس الخليقة الجديدة التي أرادها الله الآب وثبَّت قيامها بالروح القدس، ولذلك السبب عينه نحن شركاء الروح بسبب ثبات مسحة الرب، ونحن شركاء المسيح بسبب ثبات اتحاد اللاهوت بالناسوت، ونحن شركاء الطبيعة الإلهية بسبب إرادة الله الآب ومسرته.

[١٠] نحن شركاء الطبيعة الإلهية بسبب محبة الثالوث لنا. ومحبة الثالوث مُعلَنةٌ ليس بالأقوال فقط، بل بإعلانات إلهية مثل تجسُّد الرب وموته المحيي وقيامته، وهو الإعلان المثلث الذي يعلن إرادة الله الآب، ومحبة وانسكاب الروح القدس، وتواضع الابن وقوة التصاقه بنا. محبة لا تعرف التردد، وتواضع لا يرذل الخطاة والضعفاء، ولذلك نحن نطلب هذه المحبة بالتعليم بالكلمة، وبالشركة في الأسرار لا سيما سر الشكر بانسكاب الروح المعزِّي الذي يُعطى في الأسرار؛ لأنه "روح الابن" كما هو "روح الآب" منبثق من الآب لكي يستقر فينا بواسطة خدمة الابن الكهنوتية الدائمة إلى الأبد.

هذه هي أساسات الإيمان التي تعطي لنا الحياة الأبدية، وشركة في حياة الثالوث القدوس.

---

(١) "فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء." (١كور ١١: ٢٦).

(٢) مشتقة من كلمة طوفان، أو موجة قوية. راجع القداس الغريغوري èpipelagoc si]ϣnaϣ وليس شيء من النطق يستطيع أن يحد لجة محبتك للبشر.

رفض الإيمان بالمسيح يعطِّل الاعتراف بالتوحيد

٥٤– تعالوا أيها الإخوة معنا لكي نقول مع أشعياء النبي: "هلم نتحاجج يقول الرب ...." (أش ١: ١٨). لنضع أمام الكل حجة وبرهان إيماننا بالمسيح الذي يقودنا إلى التوحيد؛ لأن التوحيد عند غالبية الموحِّدين هو رأيٌ واعتقادٌ صحيح صادرٌ عن وعي بخالق واحد.

هذا هو الحد الأول والأخير للتوحيد، أي أنه اعتراف موجَّه ضد جهل الإنسان بخالقه، ولكنه لا يحتوي على أية إشارة ولو ضمنية إلى شركة أو إعلان يسبق هذه الشركة. وهو عكس ما ورد في الأسفار، فقد أعلن الله عن نفسه في العهد القديم بظهورات ورؤى، وأعلن عن نفسه في ابنه حسب كلمات الرسول بولس "بأنواع وطرق متنوعة"، ثم "كلَّمنا في ابنه" (عب ١: ١ – ٢)، ولم يتوقف الرسول عند إعلان الله عن ذاته في الابن، بل حدد قوة الإعلان بأنه، أي الابن:

– رسم جوهره وخالق كل الأشياء.

– صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا.

لأن العلاقة بين الخالق والمخلوق لا تقف عند حد الخلق، بل هي علاقة الخالق والمخلِّص بالخطاة. ولذلك السبب، عندما استقر التوحيد في عبادة بني إسرائيل، وبشكل خاص في صلوات المزامير التي احتوت الإعلانات الإلهية عن الله وعن استعلان قوة الله للخلاص، وبعد أن استقرت في حياة الشعب وخلال مئات من السنين، جاء الابن وتجسَّد من دم ولحم هذا الشعب بالذات لكي يفتح كنوز الأنبياء وبركة إبراهيم للشعوب الأخرى.

٥٥– اعلموا أيها الإخوة شركاء الرب أننا لا ننطق بعبارة الإيمان "نؤمن بإلهٍ واحد"؛ لأنها جاءت من السماء حروفاً وكلمات، بل جاءت من السماء مع الابن ومع الأنبياء، وأُعطيت بالروح القدس بإعلانات نبوية، ومن خلال اختبار وتذوُّق خلاص الله المعلن في يسوع المسيح ابن الآب حسب الجوهر، الذي جاء لكي نكون أبناء الآب حسب النعمة، وعند ذلك فقط يمكن أن نقول إن الله واحدٌ حسب القواعد (الأساسات) السبعة للتدبير الذي وُهِبَ لنا بواسطة مخلصنا الصالح يسوع المسيح له المجد، آمين.

وتوحيد الله حسب قواعد التدبير هو:

أولاً: توحيدٌ مصدر وينبوع النعمة التي توهَب بالآب في ابنه يسوع المسيح بالروح القدس. نعمةٌ واحدة لها أعمال متفرقة مثل الغفران، الميلاد الجديد، التبنِّي، الحياة الأبدية، مواهب وقوَّات الروح القدس. ولكن كل هذه تعود إلى أصلٍ واحدٍ.

وكل هبة أو عطية، لا يمكن فصلها أو عزلها عن غيرها من العطايا الأخرى؛ لأن الغفران يؤهِّل للميلاد الجديد، والتبنِّي لميراث الملكوت، والميراث للحياة الأبدية، والتكلُّم بألسنة للتعليم، والتعليم لثبات القلب والاستنارة، والاستنارة لميراث الملكوت، ومعرفة الثالوث للثبات في المحبة، والمحبة هي نعمة التبنِّي، ونعمة التبنِّي هي من وفي الميلاد الثاني في المعمودية، والميلاد الجديد يستدعي غذاء الملكوت وطعام الخلود، أي سر الشكر، وسر الشكر لا يمكن فصله عن التوبة، والتوبة لا تنفصل عن سُكنى الروح القدس مطهِّر القلوب وشافي نيَّات القلب، وشفاء القلب يقود إلى الاستنارة والالتصاق بالمسيح المخلِّص، والالتصاق بالمسيح المخلِّص يعطي لنا شركةً فيه، والشركة فيه تعطي لنا شركةً في مسحته، والشركة في مسحته تعلن لنا الآب، وإعلان الآب هو في الابن، والابن الذي في الآب يعلن لنا ليس فقط أُبوة الآب وبنوَّته هو، بل أيضاً بنوَّتنا نحن، ونحن نقول بالروح القدس: "أبَّا أيها الآب"؛ لأننا أخذنا منه روح التبنِّي (غلا ٤: ٤).

ثانياً: توحيدٌ مصدره الحياة الواحدة الإنسانية المفتداة والتي نالت سُكنى الله وتألُّهت بسبب نعمة الحياة الأبدية.

كانت عثرة الإنسان الأول هي مصدر الفساد والموت وسيادة الشيطان، ومع فساد الطبيعة الإنسانية ظهر انفصال السماء عن الأرض، وانفصال الروح عن الجسد، أي الموت الطبيعي، وانفصال الذكر عن الأنثى، انفصال المنظور عن غير المنظور، انفصال الفكر عن الإرادة، انفصال الإرادة عن الفهم، انفصال الفهم عن حكمة الله، انفصال الحياة حسب الله عن الحياة حسب الجسد.

هذه بعض ملامح الانهيار الذي أصاب الكيان الإنساني وحطَّمه. واستعباد الإنسان للموت ليس هو موت الجسد الذي يخشاه غير الفاهمين، بل موت الروح — الذي تحدثنا عنه كثيراً في مناسبات كثيرة — وهو انعدام الحس الروحي وتفضيل ما هو

محسوس وظاهر على ما هو روحي وغير ظاهر، وطلب ما هو مادي؛ لأن ما هو روحي غير معروف ويجهله الإنسان بسبب استعباده للفساد.

لكن الآن شكراً لربنا يسوع المسيح الذي وحَّد المنظور وغير المنظور، أي الناسوت باللاهوت، والسماء والأرض في الكنيسة المقدسة، جسده الذي يخدم سر الخلاص، والذي قدَّس الموت الطبيعي وجعله خادماً للخلاص، والذي وحَّد الذكر والأنثى في جسده، أي الكنيسة التي لا يوجد فيها ذكر ولا أنثى، بل خليقة جديدة؛ لأنه في المسيح يسوع ليس ذكر ولا أنثى.

وبالميلاد من فوق وحَّد قوى الروح والجسد حتى أننا نحن الذين لا نعرف كيف تتم هذه الوحدة، عندما تشرق فينا قوة القيامة، أي قوة الرب يسوع، تتجمع كل الحواس وترفع الجسد كله قربان محبةٍ لله الآب في خدمة ابنه يسوع المسيح بنار الروح القدس المطهِّرة والمقدِّسة.

استيقظوا أيها الإخوة؛ لأننا لا نعترف بإلهٍ واحد بنطق كلمات، وإنما نعترف بإلهٍ واحد بقوة الحياة الواحدة التي أُعطيت لنا في يسوع المسيح رب الحياة، وعند ذلك – لأن حياتنا هي المسيح وهو حياتنا — فإننا نعترف بتوحيد حياة لا تنفصل فيه الروح عن الجسد، ولا المنظور عن غير المنظور، توحيدٌ يعلنه وينطق به الروح القدس، روح التوحيد؛ لأنه "الناطق في الأنبياء".

هذا ما يعلنه الروح القدس لنا، وهو أن حياتنا القديمة تتلاشى في مياه الحياة الجديدة، أي مياه الروح القدس مقدِّس طبعنا الإنساني.

وعندما ندرك أن كل الموجودات إنما وُحِّدت تحت رأسٍ واحد هو يسوع المسيح، ندرك من عدم الانفصال ومن الوحدة إن الله واحدٌ.

هذه هي رؤية الآباء والأنبياء والرسل وشهداء الرب يسوع المسيح.

ثالثاً: توحيدُ تمايزٍ لا تختلط فيه الطبائع، ولا يذوب فيه الأشخاص؛ لأنه توحيد محبةٍ تجمع لكي تحفظ، وتوحِّد لكي تقدِّس، وتقدِّس لكي ترد التمايز إلى قوة الحياة التي وُهِبَت للخليقة قبل السقوط، وهي حياة بلا موت، لا تخلد بقوة وجودها، بل بقوة الله وشركتها في الحياة الأبدية.

رابعاً: توحيد توللوجي[١]؛ لأن الأول هو الآخر، والبداية هي النهاية؛ لأن الحياة الجديدة تبدأ بالمسيح وتنتهي في المسيح، ولذلك توحيدنا هو في الغاية، هو في اجتماع الألف A والياء Ω معاً، أي أننا نسلك طريق الحياة الجديدة لكي ننال في المسيح البداية التي لأجلها خُلقنا، والتي لمَّا سقطنا منها وفشلنا، صارت هي الغاية (أو النهاية أو الهدف) الذي يقودنا إليه الرب يسوع، ويعطي لنا أن نناله فيه.

فالتوحيد عندنا هو توحيد غاية وطريق الحياة الجديدة في الرب يسوع المسيح؛ لأننا رغم تنوع النِّعم الإلهية، ورغم تنوع أعضاء الجسد الواحد أي الكنيسة جسد المسيح، إلاَّ أننا – بالتنوع – ندرك أنه (أي التنوع) وفرة وصلاح الله وفيض رحمته الذي يعطي لنا ما يكفي صلاح الحياة فينا عندما نتَّحد معاً لغايةٍ واحدة وهي "رباط السلام والمحبة" (راجع أف ٤: ٣). عند ذلك تصبح الحياة المشتركة لأعضاء الجسد الواحد – جسد المسيح – هي اختبار وتذُّوق للشركة.

خامساً: لاحظوا أيها الإخوة الأحباء أننا لسنا فقط جسدٌ واحدٌ، أي وحدة منظورة، بل نحن جسدٌ واحدٌ هو جسد المسيح.

هذه وحدة مصدرها النعمة، ليس فقط كعطية من فوق، بل كعطية تُعطى للممارسة. نحن واحد لأننا نعمل كواحدٍ بواسطة الواحد يسوع المسيح، ومن هذه الحقيقة نتعلم التوحيد ونمارسه. لأننا عندما نولد من جديد لكي نصبح أعضاء جسد الرب، فإننا ننال من الابن الاتحاد به، وهو الاتحاد الذي يؤهلنا للوحدة. وعندما يسكب الروح القدس محبة الثالوث فينا (راجع رو ٥: ٥) فإننا بالمحبة – وليس بالاعتراف بالكلمات – نعرف أن الله واهب الكل – أي كل هبات الحياة والصلاح – للوحدة.

سادساً: توحيد الرب والوسيط الواحد يسوع المسيح الذي جمع الله والإنسانية في أُقنومه الإلهي المتجسِّد، فصار بذلك وسيط خلاص ووسيط إعلان المحبة

---

(١) وجدنا صعوبة في ترجمة الكلمة اليونانية القبطية eloc] وهي إحدى الكلمات الهامة في العهد الجديد، وردت بوفرة عند الآباء لا سيما في موضوع خلق وخلاص الإنسان. وأقرب كلمة عربية هي "غاية"، ولكن الكلمة اليونانية تتضمن ليس فقط "الغاية"، بل "النهاية"، وهي ليست الكلمة الإنجليزية End بل النهاية أي الكمال حسب شرح الآباء وحسب شرح الأب صفرونيوس نفسه.

الإلهية. ولأن الوسيط واحد، صار التوحيد مُعلناً في الوسيط؛ لأن اتحاد اللاهوت بالناسوت في أُقنوم واحد ينفي كل إعلانات أخرى لا توحِّد الله والإنسان، أو يجعلها خاضعة للإعلان الإلهي الكامل عن الوحدة التي تمت في ربنا يسوع المسيح.

سابعاً: توحيد المعزِّي الباراكليت المدافع والمعلِّم، والمعلن أسرار الله وخفايا قلب الإنسان، وهو المعلن للوسيط ومعطي حياة الوسيط الواحد، ولذلك نقول: "واحدٌ هو الله الآب، أبو كل أحد، واحدٌ هو ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح، واحدٌ هو الباراكليت". فالواحد هنا هو مصدر الإعلانات وواهبها، ومعطي كلمة التعليم والشهادة ومدبِّر كل احتياجات التقديس ومطهِّر كل الخليقة، ومقدِّس كل النجسين، ومنير كل الذين يحتاجون إلى النور الإلهي.

وكما قلنا من قبل، إن المواهب لا تنفصل، كذلك نقول إن أقانيم الثالوث لا تنفصل؛ لأن الوسيط هو من الآب أي ربنا يسوع المسيح يقودنا للروح القدس، والروح القدس يقودنا للابن، والابن للآب. ومن الينبوع، أي الآب نأخذ التبنِّي في الوسيط يسوع المسيح. وفي الوسيط نأخذ مسحة التقديس لكي نكون أخصَّاء أي أعضاء الجسد الواحد. ومن المسحة نأخذ مكاننا في وحدة جسد المسيح الكنيسة، ومن الكنيسة نتعلم الشركة ومحبة الآخر عند كسر خبز الرب واستدعاء روحه القدوس. ومن كسر الخبز نتعلم كيف نصير الجسد الواحد بقوة الالتصاق بالرب يسوع الذي نأخذه سرياً في الجسد والدم. ومن الالتصاق بالرب نمتلئ من الروح القدس، وبالامتلاء بالروح القدس نقول: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤). ومن الآب وفيه بالروح القدس ننال ليس فقط إعلان التبني، بل إعلان الأُبوة، أي أُبوة الله الآب التي تظهر مستترة في حياة القديسين من رعاة الكنيسة.

حقاً واحدٌ هو الروح المعزِّي الباراكليت المدافع عن التوحيد الصحيح، الغارس فينا نطق الحق بأن الثالوث واحدٌ، ليس حسب قوة رقم واحد، بل حسب قوة الوحدة؛ لأن الأرقام جميعاً – مهما كانت – خاصة بالزمان الحاضر، وإذا لصقت بالرب تجلب عبودية ووثنية جديدة.

القواعد السبعة للتدبير[١]

٥٦- هذه القواعد هي:

أولاً: توحيدٌ يعطى بواسطة نعمة الله الآب في ابنه يسوع المسيح بالروح القدس. وتوحيد الينبوع هو توحيد الممارسة، أي قبول نعمة واحدة تعمل في الكل، وتعطي الكل خيرات وصلاح ومواهب متنوعة؛ لأننا بالنعمة نرى الاختلافات، ليس للفصل والانشقاق، بل للوحدة وكمال جسد المسيح الواحد الكنيسة الجامعة.

وإذا ظهرت نعمةٌ وموهبةٌ في إنسان، فهي من أجل الكل، ولا يمكن – كما سبق وأشرنا – أن تكون من أجل الانقسام، بل الموهبة هي مثل أصابع اليد متصلة لا تنفصل، وتعمل معاً مع باقي المواهب لكي تثبِّت الوحدة وتنقل الإنسانية الجديدة إلى الحياة الإلهية التي لا انقسام فيها، ولا خلل الفساد الذي يجعل عنصراً يعلو ويسود؛ لأن الفساد هو الذي جلب هذا الخلل في الإنسان، أمَّا الله فهو مصدر كل صلاح وحياة وغنى، ولذلك يقول الرسول: "الروح واحد" و "المواهب متنوعة"، لكن تنوع المواهب لا يعنى بالمرة تنوع في طبيعة الروح الواحد، بل العكس هو الصحيح، وهو أن التنوع وبقاء الوحدة هو طبيعة في الله لا تُفرض عليه ولا يصارع ويجاهد لكي يحفظها.

ثانياً: والحياة الواحدة في صورتها الحالية هي حياة جسد الرب الواحد الكنيسة جسد المسيح. وعلينا أن نلاحظ أن الاسم "جسد المسيح" هو جسد الرب الذي مُسِحَ بالروح القدس، ولذلك أينما وحيثما تذكر الأسفار "جسد المسيح"، فإن اللقب يشير إلى مسحة يسوع، كما يؤكِّد لنا هذا اللقب أيضاً بشكل مباشر وحدة عمل الرب يسوع والروح القدس الذي مسحه.

يسوع – بالروح القدس – هو المسيح، أي الوسيط الذي يمسح كل من يأتي إليه بالروح القدس الأُقنوم الثالث في الثالوث. ولذلك، الكنيسة هي هيكل الله الحي في

---

(١) الكلمة القبطية [eucen أي أساس أو قاعدة. والعنوان من وضع الأب صفرونيوس.

العالم، ينبوع مواهب وعطايا الروح القدس؛ لأنها جسد المسيح، **وبدون الإيمان والشهادة بأنها جسد يسوع المسيح الذي يُمسَح بمسحة أبدية، تفقد الكنيسة قوتها وحياتها وتصبح جماعة بشرية خاضعة لعبودية الطبيعة الإنسانية المستعبدة للفساد والموت**، وبشكلٍ ظاهرٍ الانقسام والتحزُّب الذي وصفه الرسول بولس بأنه "أعمال الجسد" (غلا ٥: ١٩ - ٢٠).

ثالثاً: حياة حسب الروح القدس، ولذلك فإن ما جاء الرب لأجله وأسَّسه في العالم هو اتحاده بالإنسانية مؤلِّهاً إياها فيه وواهباً لها الشركة في الطبيعة الإلهية فيه وبالروح القدس.

هذا أساس التدبير؛ **لأن علاقتنا بالثالوث لا تأتي منَّا، وليست نابعة من كياننا، وهو ما ينفي تماماً مقايضة الرب بالأعمال الصالحة؛ لأننا لا ننال شيئاً حسب صلاحنا – إذا وُجِدَ – بل حسب نعمة الله.**

رابعاً: حياة حسب الروح القدس، أي تنال قوتها من الروح القدس الذي يعمل كل الأشياء ويعطي الأسرار والمواهب ويغرس كل عضو في جسد المسيح الكنيسة واهباً إياه أن يكون صورة مجد الرب يسوع المسيح المعلن في تجسُّده، والغالب الموت والخطية بالصليب، والحي إلى الأبد بسبب الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، والقاهر (الغالب) للموت والفساد بسبب قوة القيامة.

هنا – أيها الإخوة – كما سبق وذكرنا، ننال قوة الاتحاد بالرب في المعمودية المقدسة، وقوة مسحته في الميرون الإلهي، ونحيا به وفيه في الإفخارستيا. وهنا يعلَن الثالوث في التدبير؛ لأننا ننال الميلاد الجديد باسم الآب أي منه، وباسم الابن أي فيه، وباسم الروح القدس أي به. وهذا ما تؤكِّده الغطسات الثلاث؛ لأننا نعتمد بغطساتٍ ثلاث على اسم الثالوث القدوس الواحد بالجوهر. نولد من الآب، وفي الابن، وبالروح القدس؛ لأننا ندخل شركة أقانيم الثالوث ليس بقوتنا ولا بقدرتنا، بل بنعمة الرب يسوع المسيح. ونُمسح بذات مسحة الابن وننال نفس القوة التي حدَّها الأول الصليب، وحدَّها الثاني القيامة. بالحد الأول نحيا حسب شريعة الصليب، وبالحد الثاني نتحرك ونحيا حسب قوة القيامة. والصليب شريعة؛ لأنه ناموس البذل والعطاء وصلب الحياة القديمة، والقيامة قوة حياة لا يمكن أن تنفصل عن الصليب.

خامساً: يعلَن الثالوث في التدبير حسب تجسُّد الابن الوحيد؛ لأننا بسبب التجسُّد وُهبنا النعمة التي لا تزول، وبالمتجسِّد نرى الآب، ومن المتجسِّد نقبل الروح القدس، ومتى قبلنا الروح القدس نُغرس بقوة الروح القدس في الحياة الجديدة التي تقتل الخطية والموت، ولا يقتلها الموت ولا تقوى عليها الخطية.

وكما سبق وقلنا من قبل، نعيد هذا الشرح لأجل مجد المسيح إلهنا: إننا ننال كل شيء من الآب وفي الابن وبالروح القدس. وحتى الصلوات، وُهبنا أن نصلِّي لله كآب لنا في يسوع المسيح ناطقين بكل ثقة الأبناء – رغم خطايانا – بقوة وثقة الروح القدس.

وحسب تجسُّد الابن الوحيد نرى أساسات الشركة؛ لأننا نأخذ التبني عطيةً من الآب أُعلنت بمسرة الآب في ابنه الوحيد يسوع المسيح (راجع أف ١: ٥) ونحيا بقوة وسلطان الابن، ونتحرك حسب الحياة التي يعطيها الروح القدس لمن يشاء أن يحيا به وفيه.

سادساً: تدبير عطية الأسرار المقدسة، وهو تدبير الشركة حسب عطية الآب لنا في ابنه يسوع المسيح وحسب إعلانات الروح القدس مُعلن سر المسيح وواهب حياته لنا حسب غنى تجسُّده؛ لأنه لَمَّا تجسَّد من الروح القدس ووالدة الإله أعلن في تجسُّده موعد إعلان اتحاد الله بالبشر، وأعلن كمال الوعد لإبراهيم بأنه فيه تتبارك كل شعوب الأرض (أع ٣: ٢٥) بالاتحاد بالابن المتجسِّد، وارتفاع الطبيعة الإنسانية من العبودية إلى رتبة التبني.

وبتجسُّد الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح جاء إلينا كمال البركة؛ لأننا فيه ننال أكبر اقتراب من الآب، حيث أنه صار رأس البشرية الجديدة، آدم الثاني المولود من فوق، أي من الطبيعة الإلهية ومن الأرض، أي من والدة الإله، مُوَحِّداً السماء والأرض في أُقنومه الإلهي المتجسِّد؛ لأنه جعل ذاته الشفيع والوسيط، وأقامه الآب "البكر" و "الوريث" و "بداءة الخليقة الجديدة" و "رئيس الكهنة".

وهو يتحرك حسب التدبير لأنه "البكر"، ولذلك هو "الوارث" لكل مواعيد الآب، ويعطي هذه المواعيد لمن لا يستحق؛ لأنه الشفيع ووسيط كل الخطاة. ويعطي

من ذاته ومن حياته وليس عطية خارجية؛ لأنه البدء. وعندما يعطي، فالعطية نفسها جديدة لم توهَب من قبل؛ لأن الخليقة القديمة ليس فيها حياة إذ خضعت للموت، ولذلك صار بحسب قدرته الإلهية "آدم الثاني" و "بداءة خليقة الله"، ليست تلك التي استُعبدت للموت، بل التي به وفيه غلبت الموت.

وهو "خادم الأسرار"؛ لأنه يعطي خدمة موته وقيامته في المعمودية، وخدمة مسحته في الميرون، وخدمة كهنوته في ذبيحة الإفخارستيا التي تعلنه في الليتورجية رئيس كهنة في المسكن الحقيقي الذي أقامه الرب وليس البشر (عب ٩: ١١).

وشركتنا في موته وقيامته في المعمودية المقدسة تنال قوتها منه كوسيط، ويخدمها كآدم الثاني ويعطيها بالروح القدس للتبني ولشفاء الطبيعة الإنسانية. أمَّا في سر الشركة الإفخارستيا، فإن شركتنا في جسده ودمه تهب لنا المسيح كله. ونحن هنا لا نقارن بين الأسرار؛ لأنه في المسيح يسوع لا يوجد أعظم وأقل، بل المسيح الواحد الكامل في كل عطاياه، والواحد الكامل في محبته التي لا تنقسم عندما يوزِّع عطاياه، أي عطية حياته الغالبة لكل أشكال الانقسام والانفصال.

سابعاً: تدبير الكنيسة جسد المسيح الواحد الحي بالروح القدس. هذا التدبير يحكمه الرب يسوع بمحبته للبشر، وهو ثابت أولاً في اتحاد اللاهوت بالناسوت. ومعلن ثانياً بقوة الروح القدس.

ويقوم تدبير الكنيسة على أساسات التعليم الرسولي:

- زرع الرجاء في الساقطين، وانتشال الساقطين بالتعليم والصلاة والصوم.
- قبول كل التائبين العائدين إلى الله في يسوع المسيح؛ لأن الراعي الصالح علَّمنا أن نترك الـ ٩٩ ونسعى في طلب الخروف الضال.
- سيادة المحبة على القانون الكنسي؛ لأن المحبة سبقت القانون، والقانون وُضِعَ للهداية.
- سيادة الحكمة على كل الأحكام؛ لأن الرب يسوع قيل عنه إنه لم يطفئ الفتيلة المدخِّنة، والقصبة المشروخة لم يكسرها، بل جاء لكي يطلق سراح الأسرى، ويبشِّر بسنة اليوبيل التي يُطلق فيها العبيد وتلغى الديون، ولذلك دخل اللص اليمين

الفردوس، وعاد الجاحد (بطرس) إلى رتبة رسوليته.

– لا تعالج الخطية بالقسوة، ولا تشفى بالتأديب، بل تعالج بالمعرفة وتشفى بقوة ورحمة الروح القدس.

– هذه تعلن لنا اتحاد اللاهوت بالناسوت؛ لأن الرب لم ينفصل عن ناسوته، ولذلك لا يجب أن نسمح لأيٍ من الأمور أن يفصل إنساناً عن الرب.

– وأعطانا الروح القدس الباركليت المُدافع الحي في الضعفاء والخطاة وطالبي الرب، ولذلك لا يجب أن نحزن الروح القدس الذي به خُتمنا للفداء (٢كور ١: ٢٢).

لنفرح بالرب الذي يفرح بعودة الضال.

٥٧– التدبير كله هو يسوع المسيح، وحسب يسوع المسيح، وكما هو مدوَّن في الإنجيل المقدس الذي يعلنه الروح القدس، الذي يعلن عمله في القلب وفي الكلمة والأسرار.....

.....

.....

..... (ثلاثة أسطر ضائعة من الأصل)

لا توجد خاتمة لهذا الكتاب، ويلي ذلك رسالتين للأب سلوانس عن اشتياقات الروح القدس. والثانية في الثالوث والخلاص.

من رسائل القديس صفرونيوس

الثالوث
واشتياقات الروح القدس

الثالوث
واشتياقات الروح القدس[١]

صفرونيوس عبد يسوع المسيح الذي علَّمنا أسرار الله، وأعلن لنا الآب، وأعطانا روحه القدوس.

سلامٌ ونعمةٌ ومحبةٌ لكم أنتم شركاء الميراث الأبدي، وللأب سلوانس مدبِّر الإخوة.

١– نعم وحقاً يشتاق إلينا روح الله القدوس رغم خطايانا؛ لأنه "يئن" لكي يرفع الخطاة من مزبلة الفساد والخطية، ويقدِّسهم مطهراً إياهم بدم الحمل الحقيقي من لعنة الموت والفساد. ولذلك، كما يقول الرسول الحكيم: إننا لا نعلم ما نصلِّي من أجله، ولكن الروح القدس يئن مشتاقاً لأنْ يعلن لنا عظمة ومجد السماويات.

٢– **أولاً**: يجب أن نعلم أن الاشتياق للخطية يحدَّه الروح القدس بإعلاناتٍ وتوددٍ للنفس كاشفاً لها مجد الأمور الأبدية. لأن الذي تنجَّس بالزنا يعلن له الروح سلام وحلاوة الشركة حتى لا يسقط في وهم الخطية بأن الشركة في الجسد هي أعظم وأقوى ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان.

هكذا نشتاق نحن الزناة بالقلب، لا إلى النساء، بل إلى الله؛ لأن الروح القدس يغرس فينا هذا الشوق معطياً إيانا سلاماً وراحةً وتعزيةً في أجسادنا وأرواحنا.

٣– **ثانياً**: إن الاشتياق للثروة والمال وجمع المقتنيات يهدد سلام القلب، ويوزِّع الفكر ويعطي لنا رؤيةً غير واضحة؛ لأن الاهتمام بالماديات من أجل اقتناء الماديات، يلزم الإنسان بالبحث عنها وطلبها فيسقط في التشتت. لذلك يجئ الروح القدس إلى قلب الإنسان، ويعلن له الميراث الأبدي، أي ملكوت ربنا يسوع المسيح، وهو يعلنه في تواضع الرب يسوع "الذي افتقر وهو الغني لكي نصير أغنياء بفقره"

---

(١) العنوان الأصلي هو رسالة إلى الأب سلوانس.

(راجع ٢كـــور ٨: ٩). ويعلنه بقوة البذل لا بقوة الامتلاك عنوةً وقهراً؛ لأن الرب لا يملك بالقهر بل بالمحبة وبالعطاء.

ويزرع الروحُ القدسُ الخجلَ في قلب المؤمن بالمسيح؛ لأن الروح القـــدس لم يُعطَ حسب قول الرب "بمكيال" (يو ٣: ٣٤) أي كتوزيع الأنصبة، ولم يعطِ الملكـــوت بمقابل، ولا حتى بالأعمال الصالحة.

هكذا يشتاق الروح القدس – بأنين – لأنْ يعطي الحرية التامة والتجرُّد مـــن القنية ويزرع فينا هذا الشوق الذي يدفعنا بحرارةٍ في طريق الحياة النسكية.

نعم أيها الأحبَّاء، لنبدأ نحن بالتجرُّد دون أن يكون لدينا نية الحصول علـــى مقابل، بل من أجل أن نتحرر وننال حريتنا في المسيح، ولا نربط مصائرنا بما نملك، بل بما يعطيه الروح القدس. لذلك أقول لكم – أيها الإخوة – إن الروح القدس هو القوة التي تجعلنا نلتصق بالمصلوب، وتجعل الصليب علامة هذا الالتصاق (أو الاتحاد)[١] لأننا لا نرفض أو نجحد ذواتنا بقوتنا وحدها، بل بالالتصاق بالمصلوب بقوة واشتياق الروح القدس، نسير مع الرب يومياً حتى نصل إلى عمق التخلِّي عن الحياة القديمة، فننال الحياة الظافرة بتقديس الروح القدس، وليس بقوة وإرادة التخلِّي.

٤– نحن لا نتجرَّد من فراغٍ إلى فراغ، بل من الموت إلى الحياة، من ســـلطان الشيطان إلى خدمة الرب، من الحياة المتحجرة في الذات المائتة – بسبب انحصارها في الذات – إلى الحياة الحرة من الذات حيث تنمو بالرب، متجهةً نحوه؛ لأننا منه وبـــه وإليه بقوة الروح القدس؛ لأن الرب يسوع هو الغاية وهو الوسيلة، هو البداية والنهاية.

ولذلك السبب يشتاق الروح القدس إلينا، ويدفعنا بحنانٍ ورقَّةٍ وتواضعٍ لنترك الحياة القديمة؛ لأن الرب يسوع – كغايةٍ – لا يدفعنا وحده، ولكن بسبب الشركة في الجوهر الواحد غير المنقسم يشترك معه الروح القدس بنفس اشتياق الرب يســـوع إلى الحياة التي ترتفع فوق ما هو طبيعي، أي ما هو مائت[٢] إلى ما هـــو حـــي بـــالروح

---

(١) حسب الأصل القبطي كما ورد في الاعتراف بالإيمان في سر المعمودية: "ألتصق بك أيها المسيح إلهي، وبشريعتك كلها المعطية الحياة ....".

(٢) ربما "ما هو طبيعي أي مائت" تعني نفس ما يعنيه الأب والمعلم القديس أثناسيوس "الإنسان خُلِقَ من العدم

القدس، أي روح يسوع المسيح ابن الآب حسب الجوهر، وابن العذراء بالروح القدس، **الذي وُلِدَ ولادةً إنسانيةً مثل ولادتنا، لكن معطياً لها البدء الجديد أي بداية الشركة في الطبيعة الإلهية بالميلاد من الروح القدس ومن العذراء والدة الإله، وعاش حياتنا مؤكِّداً لنا أن الشركة الواحدة لا تنقسم، شركة الثالوث الواحد هي ذات الشركة التي ينالها الناسوت حسب حدود الناسوت، وحسب إرادة الثالوث الذي أشرك الناسوت في حياته عندما تجسَّد الابن الوحيد لكي يفتح أحضان الآب السماوي لنا.**

هكذا – أيها الأحبِّاء – أسس الرب يسوع ينبوع الحياة الجديدة كآدم الجديد، معطياً لنا فيه بدايةً جديدةً.

شوقٌ وأنينٌ واحدٌ للثالوث: للآب الواهب الكل، من الابن معلن الكل، بالروح معطي الكل. الآب يعطي الروح لنا لكي نقبل الابن، والابن يعطي ذاته لنا لكي نقبل الآب، لكي نتحرك معاً في داخل الحياة الإلهية التي فُتِحت لنا بالتجسُّد، وأُبيدت عوائق الموت والخطية والدينونة بالصليب وبالقيامة، وظهرت الحياة الأبدية بعطية الروح القدس.

٥– بسبب اشتياقات الروح القدس النابعة من الآب والمعلَنة في الابن يسوع مخلِّص الكل، الذي قال خذوا كلوا هذا هو جسدي، وهو شوق الحي إلى إحياء الموتى، وشدة المحبة التي تخلع المائتين من حفرة الموت إلى الحياة الأبدية.

هذا قيل في عُلِّية صهيون ويقال في كل ليتورجية؛ لأن يسوع الذي مُسِحَ بالروح القدس فصار المسيح الذي ينطق بقوة الروح وبشدة المسحة، ليس لأنه احتاج لها، بل لأنه جاء لكي يؤسِّس الشركة، فوحَّد كلمته بقوة روح الحياة، ووحَّد عمله بالحياة الواحدة للثالوث؛ لأن ما عمله هو آتٍ من داخل الحياة الواحدة، مُعلَنٌ للمائتين أي البشر الأحياء تحت سلطان الزمان، وحسب حدود الطبيعة الأولى التي لم يرذلها الرب، بل جاء لكي يخلِّصها ويرفعها من وهدة الموت والفساد إلى حياة عدم الموت.

ولذلك هو بالطبيعة مائت".

لأننا حسب الطبيعة وبسبب الخطية والدينونة خارج حياة الثالوث، والداخل والخارج هنا ليس محسوباً بالمسافات أو الزمن، بل هو حسب اختلاف الطبيعة، وحسب اختلاف الخالق عن المخلوق، وهو اختلافٌ استدعى "النعمة".

٦- أيها الأحباء، النعمة ليست من الطبيعة الإنسانية، ولا هي مثل الطبيعة الإنسانية، بل هي من الطبيعة الغالبة الموت وكل صور الانقسام، هي من اللاهوت، من الحياة، من الخالق لكي يحفظ ما خَلق ويجدد ما سقط.

ومقياس النعمة هو تأُّله ناسوت الرب يسوع؛ لأن ما حدث له، حدث لنا؛ لأنه "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"[١] والأخذ جاء أولاً والعطاء تلا ذلك.

أيها الإخوة، إن شوق الثالوث لنا هو حركة النعمة ورغبة العطاء. لقد أخذ الذي لنا بشوقٍ ومحبةٍ لا تُحَد لأنها مثل لجة البحر[٢] تغطي كل شيء، وتدفع الزائل، أي الشر أمامها. محبة تعطي من كيانها؛ لأن خلق الإنسان من العدم جعل له كياناً قابلاً لقبول عطايا الله؛ لأنه بدون الله وبدون مصدر الحياة من الثالوث القدوس لا وجود له، أي لا حياة له في ذاته لأننا لا نميِّز بين الوجود والحياة كما فعل فلاسفة العصور السابقة على تجسُّد ابن الله؛ لأنه بالتجسُّد قد أعلن في كيانه أنه هو مصدر الحياة، وأن الوجود والحياة هما لفظان يعلنان عن الإنسان.

لذلك، عندما تغمر لجة محبة البشر كل شيء، فإن محبة الله لا تفصل، بل توحِّد. لا تحوِّل كيان الإنسان المخلوق من العدم إلى كيانٍ خالقٍ؛ لأن هذا مستحيل تماماً؛ لأن ما هو خالق لم يأت بقدرةٍ، ولا هو خاضع للتحوُّل من عدم الوجود إلى الوجود، ولذلك لا يعطى ما هو خالق لمخلوق لكي يصير المخلوق خالقاً، بل لكي يصير المخلوق حياً حسب الحياة الإلهية.

وعندما نقول إن النعمةَ هي شوق الله، فإن صورة المسيح هي مقياس إعلان النعمة الذي يحدد غايتها. ولما قال الرسول: "المحبة لا تسقط أبدا" (١كور ١٣: ٨) فإنه كان يعلن عن عدم ندم الله على إعطاء النعمة (رو ١١: ٢٩).

---

(١) التسبحة السنوية، ثيؤطوكية الجمعة.

(٢) راجع القداس الغريغوري: "وليس شيء من النطق يستطيع أن يحد لجة محبتك للبشر".

٧– ثالثاً: يغمرنا شوق الروح القدس الذي يشتاق للابن المتجسِّد والظافر بالصليب والقوي بالقيامة والممجد بالروح القدس، الذي – هو بسبب تجسُّده – وُصِفَ بأنه في حضن الآب، فأدخل الإنسانيةَ إلى حضن الآب.

يشتاق الروح القدس الذي تحرَّك على وجه المياه (تك ١: ٢) وحلَّ على الابن في مياه الأردن، وجاء في شكل أو هيئة سحابة على جبل التجلِّي، ثم حلَّ في ألسنة نارٍ يوم العنصرة.

هذه الظهورات المُعلنة عن الروح القدس، تضع ظهورات الروح القدس في إطار محبته للخليقة. وفي إعلانات الخلق الجديد، يعطي الروح القدس التقديس لمياه المعمودية، ويبشر بالسلام بمسحة القوة؛ لأنه لم يمسح الرب ليكون مثل قضاة بني إسرائيل شمشون وجدعون ويفتاح، فهؤلاء نالوا القوة الزمانية المادية. وأعلن الروح القدس أنه يحرِّك المادة ويعطي حتى للجسد قوى غير مادية كما في حالة شمشون، ويعطي الألسنة النارية، نار شوق الروح القدس لكي ننطق بسر المحبة الإلهية بما هو فوق النطق؛ لأنه لا يوجد نطقٌ يعلن محبة الله، ولذلك أُعطينا موهبة الألسنة. ينطق فينا الروح القدس "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤) لأن الروح ينطق فينا ويدفعنا للنطق بسر المحبة لأننا بالروح القدس نرى أصل كياننا الجديد مولودٌ من الآب، ثابتٌ في الابن صورة التبني الذي أعلن لنا الكيان الجديد، ملتهباً باندفاع الروح القدس نحو الآب؛ لأنه "ينبثق من الآب" (يو ١٥: ٢٦) ويسكن فينا حاملاً إيانا نحو الآب، موحِّداً إيانا بالمسيح يسوع ابن الله الوحيد لكي نعلو فوق كل حدود المعرفة، ونمتلئ من ملء اللاهوت، نامين نحو الوحدة الكاملة عندما نصير واحداً مع الثالوث.

٨– لقد ذاق الرسول هذا الشوق، وأعطاه اسماً "أحشاء يسوع المسيح" (فليبي ١: ٨) وأضاف "أحشاء رأفةٍ" (فليبي ٢: ١ – ٢)، فأكَّد بذلك سُكنى رأفة الروح القدس فينا، وصار الشوق الطبيعي الذي فينا مفتدىً مقدساً بالروح القدس، لكي "نقبِّل بعضنا بعضاً بقبلةٍ مقدسةٍ"، ولكي ننال بممارسة الرأفة معرفةً تامةً برأفة الله الآب ومحبته للبشر، لذلك كانت مناديل وعصائب الرسل تشفي المرضى (أع ١٩: ١٢)، فقد نالوا رأفة الله ورحمته.

٩- رابعاً: نحن نحس بشوق الروح القدس فينا، عندما نشتاق لحضور الصلوات وتناول الأسرار، وافتقاد الإخوة، والعزلة، وسائر الأمور الأخرى. ونستطيع أن نميِّز شوق الروح عندما نحس بالشفقة، وعندما ننال عطية الدموع، ونبكي لمصائب الناس، ونطلب رحمة ربنا يسوع للكل.

١٠- خامساً: أمَّا قساوة القلب، وإدانة الآخرين، والفرح بعذاب وآلام الآخرين، والسعي للانتقام والتشفِّي، والتلذذ بذكر خطايا وسقطات الآخرين، فهذه كلها صفات الشيطان الذي يفرح بالإثم؛ لأنه بحسده أسقط آدم، وبالحسد يحارب القديسين، وبكل حيل ومكر يصطاد الضعفاء الذين يتركون طريق الله، لذلك تعلمنا الكتب المقدسة وسير المناضلين الأعزاء أن لا نحكم حتى لا نقع في ذات خطية الشيطان الذي أخذ عرش الله عنوةً فسقط، أراد العظمة فوقع في الوضاعة.

١١- أخيراً: أرجو أن يكون لنا ذكرٌ في صلواتكم، وأن نحفظ شركة الروح الواحد، وأن نبني بعضنا البعض مكملين شوق الروح القدس بمحبة الله الآب، وصبر وثبات ربنا يسوع المسيح، وفرح الروح القدس.

١٢- الإخوة الذين تركوا الدير والسيرة الرهبانية لا لوم عليهم، وإن حضروا إلى الدير وطلبوا سر الشركة (الإفخارستيا) فعليهم أن يشتركوا في الصلاة معنا، وأن نفرح بهم لأنهم لا زالوا يسيرون معنا في الطريق الواحد.

نعمة ربنا يسوع المسيح معكم.
صلُّوا لأجلي.
الحقير في رهبان المسيح، صفرونيوس.

من رسائل القديس صفرونيوس

الإيمان بالثالوث،
هل هو ضروري للخلاص؟

الإيمان بالثالوث،
هل هو ضروري للخلاص؟[١]

صفرونيوس عبد يسوع المسيح المخلِّص، ابن الآب الذي جاء لكي يخلِّص ويطلب الكل. سلام ومحبة في الرب يسوع المسيح.

أسألك أيها الأب الوقور الحكيم القس المحبوب يوسابيوس أن تذكرني في صلاتك، وأن لا تنسَ أن الشركة التي بيننا هي شركة أبدية.

١– وصلتني رسالتكم، ومعها طلب الإخوة أن أُجيب على سؤال محبتكم: هل الإيمان بالثالوث ضروري للخلاص؟

والجواب في كلمةٍ واحدة هو: "نعم". ولكن، ولأن الرسول بطرس خادم أسرار الإنجيل قد طلب أن يكون لنا جوابٌ حسن عن سبب الرجاء الذي فينا، ولأن الموحِّدين يحاولون جاهدين استمالة قلوب الضعفاء والصغار الذين لم ينالوا بركة وقوة التعليم وبركة المعرفة، نشرح الإيمان الرسولي المسلَّم لنا من الرب يسوع، ومن القديسين.

٢– **أولاً**: الخلاص ليس هو خلاصٌ من العقوبة وحدها، بل هو نوال التبني وميراث الملكوت، وعطية الروح القدس.

وهكذا لنسأل أنفسنا: هل الله واحدٌ فقط؟ أم الله واحد في ثالوث؟ لأننا إذا حاولنا أن نحصر التعليم عن الله في إلهٍ واحدٍ فقط، فقدنا عطية الروح القدس؛ لأن الواحد إذا أعطى ذاته لم يعُد هو العاطي، بل العطية.

وإذا تصوَّر أيٌّ منا أن العاطي هو العطية واختصر التمايُز بين العاطي والعطية، ضاع منه إعلان المحبة.

---

(١) العنوان الأصلي: رسالة إلى الأب يوسابيوس.

ولأن العاطي والعطية – كاثنين – كلاهما لهما ذات المحبة وذات الجوهر، صارت المحبة أقوى؛ لأن محبة اثنين ليست كمحبة واحد.

والأهم من هذا هو أن الواهب والعاطي يعطي آخر، فالآب يعطي الروح القدس كما أعطانا الابن أيضاً؛ لأننا نأتي إلى الله كعبيدٍ خطاة ونوهَب عطية الروح القدس لكي نحيا كأبناء. ولو كانت البنوة غير كائنة في الجوهر الإلهي لتعذَّر علينا أن نقول إنها عطية أبدية، ولكن لأن الله الآب هو آب الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح، صارت عطية التبني عطيةً أبديةً؛ لأن أساسها ثابتٌ في الله، أي في جوهره.

ولأن الابن "لبس الجسد"، صار الجسد هو الأداة التي بها يوهَب التبني الأبدي للإنسان. ولذلك كان من الضروري أن نميِّز بين الأُبوة في الآب والبنوة في الابن، وهو متعذِّرٌ علينا إن استخدمنا كلمة الله واحد، واكتفينا بها؛ لأنها لا تشرح أي شيء خاص بالخلاص، بل هي جيدة جداً عندما نتكلم عن الله كخالقٍ، ولكنها بلا قوة إذا تكلمنا عن الله كمخلِّصٍ وفادٍ.

٣– ثانياً: إن التوحيدَ تعليمٌ عن الله كخالق، وهو ما نقبله، ولكنه ليس تعليماً عن الله كمخلِّصٍ وفادٍ، ولذلك يجب علينا أن نسأل: هل يمكن أن نعلِّم بالله الواحد كخالق، ونقول إنه هو نفسه المخلِّص؟

والجواب هو كيف نتصوَّر موضوع الخلاص، إذا كان الخلاص من واحد؟ لأن مَن يعطي من كيانه ليس كمَن يعطِ شيئاً خارجاً أو بعيداً أو مختلفاً عن كيانه؛ لأن ما هو غير الله لا ينتمي إلى كيان أو جوهر الله، بل هو من الطبيعة المخلوقة التي خُلِقَت من العدم. ولكن، ولأن الخلاص هو حياة الله نفسه وقد انسكبت في الإنسان لكي يثبِّت الإنسان إلى الأبد في شركةٍ أبديةٍ، فقد جاء انسكاب حياة الله فينا ولنا بنوة وعطية من الآب؛ لأن البنوة في الآب والعطية في الآب، ومن الآب جاء الابن إلينا وتجسَّد، ومن الآب وُهبنا الروح القدس.

لذلك علينا أن نسأل أنفسنا: كيف نتصوَّر الخلاص؟

هل هو علاقة خارجية مع الله، أم هو شركة في الله نفسه؟ أي شركة تحوِّل كياننا المخلوق من العدم إلى شركة تَبَنٍّ. ولذلك، لولا وجود بنوة في جوهر الله، ولولا

وجود ابن الله الأزلي لتعذَّر علينا أن نتكلم عن تبني الإنسان؛ لأن الآب يعطي ما يملك ويجود بما لديه، وهو لا يشركنا في شيء خارج كيانه ولا يجود بعطيةٍ مخلوقةٍ؛ لأن ما هو مخلوق يفتقر إلى البقاء. فإذا كانت نعمة الله الغنية أبدية، صار التبني هو شركتنا في الآب، أي أننا ننال البنوة من الآب في ابنه يسوع المسيح.

٤– ثالثاً: وماذا عن عطية الروح القدس الذي قال عنه المخلِّص: "أطلب من الآب أن يعطي لكم معزياً آخر روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه أمَّا أنتم فهو ماكثٌ معكم ويدوم فيكم إلى الأبد" (راجع يو ١٤: ١٧).

نحن ننال الروح القدس لأنه روح الآب، وهو عطية سُكنى الله فينا، فقد حلَّ ملء اللاهوت جسدياً عندما تجسَّد ابن الله، ونقل حلول اللاهوت فينا على هذا النحو:

[١] منحنا أن ننال ذات الطبيعة الجديدة التي كوَّنها الروح القدس نفسه في أحشاء والدة الإله القديسة مريم، ولذلك نحن نولد "ليس من مشيئة رجل، ولا من دم ولحم، بل من الله" (راجع يوحنا ١: ١٣). وعندما نولد على مثال وشبه ميلاد الرب يسوع، فإننا نأخذ من الابن ذات الطبيعة الإنسانية الجديدة التي توهَب بالروح القدس، فنصير شركاء المسيح وشركاء شكله[١].

[٢] ولأن الرب يسوع أكمل عمله وأسَّس الخلاص وثبَّت الشركة، لذلك أخذنا نحن الروح القدس بعد صعوده المجيد، أي نفس الروح الذي كوَّن إنسانيته وجعل إنسانيتنا على مثال إنسانيته لكي نشترك في الابن المتجسِّد وننال شركة في بنوته تفتح لنا أحضان الآب حيث روح الآب نفسه. ولذلك، الروح القدس شريك خدمة الخلاص المساوي للابن له المجد والمساوي للآب.

ونحن هنا لا نشرح سبب وجوده في الجوهر الإلهي؛ لأن هذا فوق طاقة أي إنسان، كما أنه فوق طاقة وقدرة أي إنسان أن ينكر وجوده الإلهي؛ لأنه روح الأنبياء

---

(١) راجع قسمة القيامة للابن "فليضئ علينا نور معرفتك الحقيقية لنضيء بشكلك المحيي". وراجع صلاة خضوع للآب قبل التناول في القداس الكيرلسي "إذ نصير شركاء في الجسد وشركاء في الشكل وشركاء في خلافة مسيحك".

حسب كلمات الإيمان (قانون الإيمان) "الرب المحيي الناطق في الأنبياء"، ولذلك نحن نوهَب روح النبوة نفسه لكي نتعلم أسرار الله، وندرس الكتب المقدسة، ونقتني المواهب السماوية التي تؤهِّلنا للحياة في هذا الدهر، وفي الدهر الآتي لا سيما موهبة معرفة أسرار الله.

٥– هنا يجب أن نسأل: هل التعليم بالخالق الواحد يشرح الخلاص على هذا النحو المعلن في بشارة الحياة، أي الإنجيل؟

والجواب واضحٌ لكم، وهو أنه من المتعذِّر على مَن يريد الشركة في الحياة الإلهية أن يؤمن بإلهٍ واحدٍ فقط؛ لأن توحيد الخالق يكشف فقط عن الإيمان بخالق العالم، أمَّا التوحيد المثلث، فهو رسالة الخلاص والحياة الأبدية.

٦– هنا، ومن أجل أن يكون التعليم كاملاً، أُحذِّركم من خداع الموحِّدين؛ لأن هؤلاء يحاولون اقتحام حياة الله تحت ستار حياةٍ نسكيةٍ تشبه الحياة التي أخذناها من الآباء الحسني الإيمان، وهو زهدٌ يؤهِّل الإنسان لعبادة الإله كخالق، ولكنه لا يؤهِّل الإنسان لحياة البنوة.

وعندما قال الرسول يوحنا: "نحن الآن أولاد الله"، ولذلك لا يعرفنا العالم، أي لا يفهم علاقتنا الخاصة بالله كمخلِّصٍ وكآب؛ لأن العالم يستطيع أن يعرف خالقه، وفي نفس الوقت يجهل أن الخالق هو المخلِّص، ولذلك يكمل الرسول "نحن الآن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون، ولكننا نعلم أنه متى أُظهِر سنكون مثله لأننا سنعاينه كما هو" (راجع رسالة يوحنا الأولى ٣: ١ – ٢).

٧– نحن ندخل الحياة النسكية متشبِّهين بالذين كان الثالوث هو نور الحياة الأبدية فيهم: أنطونيوس الكبير، ومقاريوس المصري، والسكندري، وبولس المتوحِّد، وباخوميوس أب الشركة، والذين سبقونا في الإيمان من الآباء الذين عشنا معهم، وعنهم أخذنا الإيمان والحياة النسكية.

لذلك أيها الإخوة الأحباء احذروا كل ضلالٍ يستتر تحت ستار النسك والزهد؛ **لأننا لا نرث ملكوت الله بالأعمال الصالحة، ولا ننال التبني بمعرفةٍ، بل بعطية من الآب تغرس فينا المعرفة، ولا ننال سكنى اللاهوت فينا عنوةً، بل بالخلاص**

الذي مُنِح لنا في يسوع المسيح بالروح القدس.

خاتمة: أيها الأب الوقور، ثبِّت الإخوة، وانذر الذين يظنون أنهم يعرفون الأمور السماوية بإعلانات تخالف ما هو مسلَّمٌ لنا في الأسفار المقدسة، متذكرين كلمات الرسول بولس "إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم به، فلتكن هذه البشارة ملعونة" (راجع غلاطية ١: ٨).

وسلام الله الكامل يملك على قلوبكم، ويحفظنا معكم في الإيمان المستقيم.

صلُّوا لنا لكي نكمِّل جهادنا، ونرث ملكوت الله الذي وعدنا به الرب يسوع المسيح الذي له المجد الدائم إلى الأبد آمين.